

آدم واللغة

علي الزيدي

آدم واللغة

آدم واللغة

علي الزيدي



المؤلف: علي الزيدي
العنوان: آدم واللغة
الناشر: دار سحر القلم
الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
٢٢٠١ لسنة ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ISBN 978-9922-9356-2-1

The just state: Utopia or Reality



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كيف تكلم آدم، ومن علّمه اللغة، ومن الواضع للألفاظ، فهل تعلمها هكذا لوحده، من خلال تدرج زمني طويل الأمد، استخدم فيه الإشارة والأصوات العشوائية ثم المحاكاة، حتى حصلت المواضعة والإصطلاح نتيجة وجود الإستعداد الفطري للإنسان، ليستقر الحال وينتظم في إيجاد اللغة بدلالتها القصدية الحاضرة، أم لا، كانت اللغة حاضرة لدى آدم منذ وجوده البدئي؟.

والحقيقة سوف يتضح الأمر أكثر فيما لو عرفنا بأن آدم هل وجد في هذه الدنيا على نحو تدريجي، ومنذ ملايين السنين، بحيث مرّ بعدّة مراحل وكانت له عدّة مسميات؛ كالأوريوبتيك والإنسان الاسترالي وإنسان البيثكانثروس وإنسان النياندرتال وغيرها حتى وصل الى الإنسان العاقل.

أم كان وجود آدم الأب دفعيًا وهو يمثل وجوداً عاقلاً واعيًا مستعداً لخلافة الأرض وأداء دوره فيها بأكمل وجه.

فإن معرفة هذا الأمر في غاية الأهمية التي نتمكن من خلالها تحديد أطر وملامح كيفية نشوء اللغة ووصولها الى هذا الكم الهائل من الألفاظ وسعتها الدلالية، التي جعلت من الإنسان كائنًا مميزاً قد أدرك ما يحيط به من مفردات الطبيعة، وما كان له أن يتعامل معها لولا الخطاب اللغوي.

وفي هذا السياق وجدت عدّة نظريات بحثت في معرفة نشوء اللغة، بالرغم من وجود معارضين للبحث في هذا الموضوع. وقد انقسمت تلك النظريات الى قسمين؛ نظريات علماء اللغة ونظريات علماء أصول الفقه، وسوف نختار في بحثنا هذا أبرز النظريات من كلا القسمين لعرضها ومناقشتها، ومن ثم لنصل الى بيان الرؤية المناسبة عساها أن ترفع بعض الغموض الذي أحاط بهذا الموضوع.

علي الزيدي

آدم في الدنيا

منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض وهو يصارع بإتجاهين:

الأول: وهو يواجه الطبيعة، وما ينبعث منها من آثار، عليه أن يتغلب عليها حيناً، وحيناً يتماشى معها.

الثاني: وهو يواجه أبناء نوعه للوصول الى تآلف وود إجتماعي يسعد من خلاله.

أما في الصراع الأول فإن هناك كثير من صعوبات الطبيعة وآثارها الذاتية مع عوارضها على الأرض، تم التغلب عليها تارة أو مسايرتها لتكون في خدمة الإنسان. إلّا أنه في الحقيقة بقيت جوانب مهمة أخرى لم يسيطر عليها من قبل الإنسان، وبقيت حاكميتها والقوّة التي تحركها بيد الطبيعة، ولا يستطيع أن يتدخل بها. وبقي قبالها يعيش حالة التنبؤ والترقب لما ستحدثه من آثار فيما لو حدث أمر ما.

وهذا بحد ذاته يمثل جانباً مرعباً تجاه المجهول، وما يخفيه من عوامل وكوامن القوّة لدى مفردات الطبيعة الهائلة. ولذلك كانت هناك آثار للطبيعة في هذه الأرض تُحدِث كوارث، تسبب كثيراً من الخسائر في الأرواح والمعدات لتوصل عدّة رسائل الى البشر منها:

- تحدي قدرات العقل في معرفة الأسرار المحيطة بكوكب الأرض بالرغم من التطور الحضاري الهائل، هذا فضلاً عن معرفة أسرار الكون الكبير بأجمعه.

- عدم التوصل الى مرحلة من تكامل البشرية تستطيع من خلالها أن تعقد صلحاً مع قوى الطبيعة، لتسير بالتالي بما يريده الإنسان في هذا الوجود الكوني الكبير.

أما في الصراع الثاني، فأوضح صورة تمثل نشوء هذا الصراع، هو ذلك الصراع بين الخير والشر الذي تمثل بقابيل وهابيل، الذي أدّى بالتالي الى قتل هابيل على يد قابيل، وفي الحقيقة هذا يعطينا مبرراً للخروج بتصور أن الدنيا بدأت

بصراع الخير والشرّ، وتمكن الشرّ في كثير من الأحيان، بالتأثير على قوى الخير، وعرقلة حاملي لواءه في هذا الوجود.

ولذلك نستطيع القول بأن الوجود منذ خلقه الأول — ونحن نتكلم بكل تأكيد عن الوجود الإنساني المتمثل بآدم — هو وجود يبدأ بصراع الأضداد ببعديه الرئيسيين الخير والشر، وكأنّما الإنسان خلق وهو مزود بأدوات المعرفة التي يسعى من خلالها للوصول الى الكمال الذي يتساوق مع الكمال الكوني، وهو لذلك لم يكن قد تكامل التكامل المرجو حين وطأت قدماه الأرض، فهو وجد وهو يحمل الروح والعقل والجسد، وما يرافق ذلك من عمليات نفسية ووجدانية تسيطر في كثير من الأحيان على مشاعره وتصرفاته، مما تجعله غالباً ما يكون أسيراً لتلك الأدوات التي يتشكل منها سلوكه النهائي.

ولعل العنوان الواضح في تزويد الإنسان بقابلية الهداية

أو الغواية، أو قل التعامل بالمنظور الإنساني أو المنظور الشيطاني ومنذ لحظاته الأولى في هذه الطبيعة، هو ما نتج من سلوك قابيل العدائي مع هابيل والذي دلّ على وجود نزعات نفسية ميالة للاستحواذ والهيمنة تحركها ملكات شريرة داخل الفرد نفسه، فمن أين جاءت تلك الميول والنزعات وبهذا الإتجاه الحاد، الذي بلغ ذروة الإنتقام، بقتل نفس هي أقرب مخلوق إليه ومن ناحيتين:

الأولى: النوع الإنساني، والثانية: الخروج من رحم واحد وأب واحد.

والشيء الذي يثار، وبسبب عدم وجود خبرات سابقة، ولا عوامل نمو مساعدة على إكتساب الرذائل والأحقاد والعداوات، بل لم يزل عدم وجود لمعرفة الإنتقام الذي تهدأ تلك الغرائز الشريرة عندما تقدم عليه. فمن أين جاء كل ذلك التحامل على هابيل من قبل قابيل؟!.

فهنا لن تسعفنا النظريات التي حاولت أن تفسر نشوء

الحضارات بما تحويه من مميزات أو عوامل النشوء والبناء. فلا نظرية البؤرة الواحدة التي تحاول أن تفسر كيفية الإنتشار الذي يحدث في منطقة محصورة من بقاع الأرض، لتأخذ بالزحف التدريجي نحو المناطق الأخرى، ولا يسعفنا ما طرحه أصحاب المنهج التاريخي بالطريقين اللذين وضعاهما لتحليل سبل انتشار الحضارة، وإكتساب العادات والمهارات والأبعاد الثقافية المختلفة.

فلا الطريق الذي يؤمن بوجود مركز ثقافي واحد نشأ وتأسس لتنتشر منه الحضارة وميزاتها الثقافية الى بقية انحاء العالم، وهذا ما تبناه العالم الإنجليزي (إليوت سمث) والذي يعتبر من اعلام المدرسة الإنتشارية (Diffusionist school) والذي تأثر بتاريخ مصر والحضارة المصرية، وحاول أن يبرهن على أن مصر هي المركز لإنتشار الثقافة والحضارة الى العالم.

ولا الطريق الثاني، الذي يؤمن بوجود مراكز متعددة

إنتشرت من خلالها الثقافة، وكونت بعدها مراكز حضارية وثقافية. ولقد كان العالم الأمريكي(فرانز بواز) الذي يدعى بأبي الأنثربولوجيا الأمريكية، والذي كان يرى بأن الكثير من الثقافات تطورت بصورة مستقلة عن بعضها، وكلّ منها قام على مجموعة خاصة بها، وما يحيطها من ظروف خارجية وداخلية.

وكذلك لن يفيدنا المنهج البنيوي الوظيفي المضاد للمنهج التاريخي، الذي وجد للرد عليه، والذي أكد على دراسة الثقافات والحضارات البشرية بشكل منفصل. معتبراً ان لكل حضارة وثقافة عناصرها الخاصة، والتي تتقوم بها، بخلاف الحضارات والثقافات الأخرى. معتبرين إن للزمان والمكان دوراً هاماً في تحديد عناصرها.

وإن كان هذا المنهج بإعتبار ترافق الوظيفة مع البنية، أكثر إقناعاً كونه نموذجاً جديداً، قدم فيه مفهوم الوظيفة كأداة منهجية تعين الأنثربولوجيين بإجراء ملاحظاتهم بشكل

أكثر تركيزاً.

ثم هل تعيننا دراسة الزمن بإعتباره متغير مستقل لمعرفة الحياة الإنسانية، وهي تمر من خلال بوابته الكبيرة، ليدخل مرحلة الإستمرار والتغير ليصيب حالة الفرد وهو يتقلب عبر مراحل الطفولة والنضج. وقد يصادف في هذه الحالة إمتلاك أو وجود خبرات مبكرة أصرّت على قابيل قتل أخيه هابيل؟

أم هل تفيدنا الآمال المثالية لعلماء الإجتماع الليبراليين في أن الشرور الإجتماعية والسياسية يمكن تفاديها من خلال خبرات تنشئة إجتماعية مبكرة أفضل؟

أم تفيدنا النماذج التي قدمها (بياجيه) في النمو الأخلاقي والتي طورها من بعده (كوبرج).

أم نموذج المجال المعرفي الإجتماعي الذي صاغه (توريال) الذي اعتبر نموذج التفكير الأخلاقي كواحد من مجالات عديدة من المعرفة التي تبزغ في الإرتقاء الإجتماعي المبكر.

أم هل تفيدنا نظرية التحليل الجنسي لفرويد التي تعزوا كلّ ما يصدر من سلوكيات الإنسان الى الجنس. فأين هذا من موضوعة القربان الذي عرضته الآية المباركة: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) المائدة: ٢٧.

كل هذه النظريات والآراء وغيرها، تقف عاجزة عن تفسير هذا الذي صدر من قابيل تجاه أخيه هابيل. حيث لا توجد خبرات مسبقة، ولا تجارب إجتماعية ناضجة للتأثير على الفرد، فلا أفراد ولا مجتمعات، فقط آدم وحواء، وأولادهما، ولا وجود لبؤرة ثقافية أو ملامح مجتمعية في اقطار الأرض المختلفة، حتى تتكون حلقات تضاد وتناقض سلوكي يكتسب عبر تربية مقصودة، ومعنونة بذائقة أصحابها. أو حتى وجود نوع تربوي عبثي، يفرض هيمنته وسطوته على الأفراد، فأين الكره وأين الحقد، بل أين الشعور بالتفوق

والتسلط، وعلى من أتفوق أو أتسلط، ثم أتسيد، ثم بعد أن تتسيد فما هي البواعث، والعائدات من وراء ذلك؟

بكل تأكيد إذا سرنا بهذا الإتجاه فإننا سائرون نحو وهم وسراب، لا يمكن أن نجد له ذرات من أثر الحقيقة.

وأما إذا انتقلنا خطوة أخرى، وقلنا بأن الكائنات التي وجدت على سطح الأرض أو نقول في المحيط الحيوي كما يقول (تيار دو شاردان)، وعندما كانت المنافسة في بعض الحالات غير مباشرة، فقد يبيد نوع، أو نموذج من نوع آخر مثله، لا بالهجوم عليه أو استئصاله، بل يستحوذ لنفسه على حصة الأسد من مورد غذاء هو بالنسبة الى كلا المتنافسين من ضروريات الحياة، فعندما تتنازع نماذج من أنواع غير بشرية، أي من الحيوان، على الطعام أو الماء أو التزاوج، فالخاسر على ما هو معروف عنها، يطلب مأوى من الرابح ويحصل على ذلك لقاء خضوعه، ومن المعروف ان الكائنات البشرية هي الحيوانات الوحيدة التي تقتتل فيما

بينها حتى الموت، وإنها تثخن قتلاً في نساء العدو وأطفاله وشيوخه، كما تفعل ذلك بالمقاتلة من الذكور ... ومن هنا فإن تقدم الحياة كان على خير ما فيه طفيلياً. أما في أسوأ حالاته فقد كان سلاباً نهاباً[1].

ويزداد الأمر صعوبة وتحير، إذ إننا سمعنا وقرأنا حواراً يدل على وجود وعي وقصد جاد، برهن على وجود معرفة مسبقة، يفهم الفرد من خلالها سبب وجوده الأرضي. فعبارات مثل: (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ*إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) المائدة: ٢٨-٢٩، ثم انظر الى نفس خطاب القائل: (قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) المائدة: ٣١، ففيه

---

(١) تاريخ البشرية: ارنولد توينبي، ترجمة نيقولا زيادة، نشر الدار الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٨١م: ص٢٣.

دلالة واضحة على الشعور بالندم، ومعرفة الإرتباط الأخوي الوشيج، ثم الإرتفاع في مستوى الوعي بحيث اطلق لفظ (السَوءَة) على جسد أخيه الميت، وهو يدل على وجود تلك المفاهيم المجردة التي هي بحالها تمثل مرحلة من مراحل الرقي الفكري الذي يحركه إدراك مسبق مليء بالتصورات الحسية والعقلية.

ثم هناك خطاب لغوي قد حوى ألفاظًا متنوعة ومتباينة في نفس الوقت، أي أننا نستطيع القول ان الذي يهدم كل تلك النظريات أو يقلل من أهميتها، أو حتى يجعلها نظريات تفقد جزء أو أجزاء من التفسير الكامل لحركة ونشوء التطور البشري هو ذلك الوجود المبكر للوعي واللغة.

آدم وعنصرا الوعي واللغة

أولاً: التصرف الواعي

هناك تحديداً للهدف الذي وجد من أجله الإنسان، وإن وجوده لم يكن وجوداً عبثياً، بل هو وجود يتدرج به الإنسان الى كماله المراد له من قبل خالقه. فهو قد عرف المعصية وقد عبّر عنها بالإثم، وعرف بأن مصير صاحبها النار، أي أنّه عرف أن هناك حياة أخرى تنتظره، وهي غير هذه الحياة، وهناك فيها جزاء للظالمين، وعطاء للصالحين، وهناك شعور بالندم على الفعل الخاطئ. لأنه قد عرف بأنه يخالف الفطرة الإنسانية، بل الأكثر من ذلك فهو عرف بأن الإنسان أعلى مرتبة من المخلوقات الأخرى، ولكن خيبة فعله وسوء تصرفه جعلته يدرك بأنه قد أصبح متدنياً، بحيث تعلم كيفية مواراة سوءَة أخيه من الغراب، الذي من المفروض أنه لا يمتلك قابليات الإنسان ولا عقله.

بل هو قد أدرك بأنه انتقل الى مرحلة التبدل في السنخية،

بسبب قتله لأخيه، وتحول من سنخيته الإنسانية الى الحيوانية البهيمية، التي لا تتعلم إلّا من خلال التقليد والمحاكاة للمخلوقات الأخرى. ولعله من هذا المقام تظهر لنا صورة ذهنية نحاول من خلالها إيجاد تفسيراً جديداً، يساهم مع الرؤى التفسيرية السابقة في تعميق الفهم القرآني، الذي يتبين من خلاله قابلية القرآن الكريم في اعطاء معالم تفسر بواسطتها نشوء الحياة الأولى لآدم وذريته، ومدى الإرتباطات المعنوية التي تساهم في ثبات الأبعاد الإنسانية لدى الفرد أو ضمورها وكمونها أو حتى غيابها لتتحول بالكلية الى سنخية كاملة لحيوانات أو مخلوقات غير إنسية.

ولعل هذا ما حدث بالفعل، مع أحدى قرى اليهود الذين اصطادوا السمك يوم السبت، فقال لهم ربهم كعقوبة لمخالفة أمر منع صيد السمك يوم السبت: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) حيث بقيت هياكلهم الإنسية، وصورهم الظاهرية على شكل بنية الإنسان، لكنهم باطنًا وكذلك أفعالهم، ما هي إلّا أفعال تشابه أفعال وحركات القردة، وكان هذا الأمر

مناسباً للفعل الذي أقدموا عليه، بحيث ظهر منهم دهاء وحيلة لم تكن موجودة في الديانات السابقة، ولم يكن لهم نصيب مشترك أو سعي بمثل هكذا حيلة، ظاهرها بعيد عن المخالفة والمعصية، وباطنها خبيث، فيه محاولة ظنوا أنهم يخدعون الله تعالى فيها.

فتصور من يصل بدهائه وتفكيره بهذا المستوى، وكما جاء في كتب التفسير عن ابن عباس أن اليهود إنما افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم، وهو يوم الجمعة فخالفوا الى يوم السبت، وأختاروه فحرم عليهم الصيد فيه وأبتلوا فيه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرّعاً بيضاً سماناً حتى لا يرى الماء من كثرتها، فمكثوا ما شاء الله تعالى لا يصيدون ثم أتاهم الشيطان فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض والشبكات، فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه ثم يأخذونها يوم الأحد، وفي رواية أن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرمه بخيط ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه فيه وتركه في الماء، فلما كان الغد جاء فأخذه وأكله، فلاموه على

ذلك فلما لم يأته العذاب، أخذ في السبت القابل حوتين وفعل ما فعل، ولم يصبه شيء فلما رأوا أن العذاب لم لا يعاجلهم تجاسروا فأخذوا وملّحوا وباعوا، وكانوا نحواً من إثني عشر ألفاً أو من سبعين ألفاً[1].

ولذلك كانت نتيجة وجود هذا المكر والخداع والتخطيط المسبق لمواجهة ومخالفة التشريع أن سلبت منهم المَلَكَة التي تتولد منها هكذا أفكار. بحيث أصبحوا كالقردة واقعاً في عدم القدرة على التعامل العقلي مع محيطهم الخارجي. وبقوا يعيشون على طريقة التقليد والمحاكاة.

أي أنهم من المحتمل جداً كانوا ينظرون الى من حولهم من الذين لم يمسهم عذاب المسخ، ليتعلموا منهم ما

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: العلّامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م: ج١٠، ص١٢٥.

يحتاجون إليه، من دون أن يفيدهم التكرار الى الخزن وكسب خبرات مستقبلية، تعينهم في الإستغناء عمّا وصلوا إليه من عمل التقليد.

وقد يكون هذا الأمر في ذلك الزمان من الواضحات التي يحس بها الناس الذين كانوا معهم، والمجاورون لهم. ليكونوا عبرة في ذلك الجيل ولأجيال متعاقبة كثيرة، ليكون له بالغ الأثر، وكدرس عملي يحدّث به كل فرد نفسه، فيما إذا مال عن الحق ومخالفة الشريعة وأحكامها.

ثانياً: اللغة

هل أن اللغة هي ظاهرة إجتماعية كما يذهب العالم (دي سوسير) صاحب المدرسة التركيبية أو البنيوية.

وهل الإنسان بدأ وسيلته التواصلية بالرقص والغناء والإشارة، حتى إستوى على عوده واستطاع أن يفعّل قدراته اللغوية الممنوحة من الله تعالى، وأن يحققها في صورة

أصوات لغوية منطوقة تفي نوع وفاء بحاجاته من التعبير والإتصال[١].

ولما كانت اللغة هي الرابط الوحيد الذي يصل بين عالمين مختلفين في طبيعتهما هما علما الأجسام والأذهان، وكانت دليلاً يستدل به على الواقع وأمارة على إنسانية الإنسان العاقل الناطق والمبين، عني بها كثيراً الفلاسفة والعلماء قديماً وحديثاً عرباً وعجماً، فدرسوا طبيعتها ووظيفتها الإجتماعية وعلاقتها بالنفس الإنسانية، فتعددت رؤاهم حولها، مما يجعلنا نصطدم اليوم بكم هائل من التعريفات المتصلة بتحديد طبيعتها ووظيفتها، وخصائصها البنيوية ضمن طائفة من النظم التواصلية الأخرى[٢].

---

(١) ينظر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد: د. كمال بشر، نشر دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م: ص٨٧.

(٢) اللسانيات، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة: د. نعمان بو قرّة، نشر دار عالم الكتب، عمان، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ص٣.

ثم هل ان الكلمة عندما تخرج من فم الإنسان، هي مجرد صوتاً يحاكي الطبيعة والأشياء المحيطة حوله، أم هي تعبير عن فكرة لتكون مقياساً لجميع مظاهر الإنسان كما يقول دي سوسير(١).

فالصوت لوحده هو الوحدة اللغوية الصغرى، ولا تعني هذه الوحدة شيئاً بحد ذاتها، ولكنها تحدد معنى ما تشير إليه بإتحادها مع وحدات أخرى، وبنفس مستواها. وهذه الأصوات تتحد في مجاميع لتكوين الكلمات، التي هي بدورها تتحد لتكوين جمل، وبالتالي تخرج وتتأهل اللغة بعد أن تتألف بعدد لا متناه من الجمل(٢).

---

(١) ينظر: علم اللغة العام: فردينان دي سوسور، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، نشر دار آفاق عربية، بغداد، ط١، ١٩٨٥م: ص٢٧.

(٢) ينظر: شظايا لسانية: د. مجيد الماشطة، نشر دار السياب، لندن، ط١، ٢٠٠٨م: ص٧.

ثم من أي محور ننظر الى اللغة لكي نستطيع وضع مخطط توضيحي منذ بداياتها الأولى والى وقتنا الحالي، هل يغنينا أو يفيدنا المحور الأفقي المتمثل بالمحور الوضعي الذي يصف الأشياء وهي في حالة ثبات، بعيد عن أثر الزمن؟ أم نعتمد على المحور الرأسي الساري المفعول بالملامح التأريخية التي تعتمد وتقوم على أساس تغير الزمن.

أم هل تفيدنا النظرة الفسيولوجية والسيكولوجية — النظرة الوظيفية والنفسية — التي تتعلق بالمظهر الأولي للإنسان، ومنذ وجوده الأول على هذه الأرض. وكيفية استغلال تلك الوحدتين بإتساق لتحقيق الغرض من وجوده الأولي الذي ينقله الى وجود آخر.

ثم إن الصوت تعاضد مع الكلمة ليشكل بالتالي جملاً بعدد لا متناه، كان على نحو التزامن، بحيث وجدت تلك المسميات بصورة الإستعداد الدفعية، أم أنها تواجدت على نحو التعاقب وبصورة الإنماء والتدرج.

وأين يضع (دي سوسير) تلك الحوارية بين قابيل وهابيل في مجال علم اللغة، حينما أراد أن يصف تاريخ جميع اللغات، وتتبع تاريخ الأسر اللغوية بالقدر المستطاع. ثم ما هي القوى التي عملت في زمن آدم وولده، بحيث تشترك بصورة دائمية وعامة في جميع اللغات، ليستنتج منها القواعد العامة من جميع الظواهر التاريخية الخاصة.

فكل هذه التساؤلات وغيرها، قد حاول كثير من المتخصصين وعلماء اللغة من إعطاء أجوبة محاولة منهم لعبور الجهل والحيرة بهذا الموضوع الشائك والعسير. كيف لا وهم أمام وجود يمثل أعظم إنجاز بشري على ظهر الأرض، ولولا اللغة ما قامت للإنسان حضارة ولا نشأت مدينة، بل حتى بلغت القداسة للغة عند الشعوب البدائية أن ارتبطت اللغة عندهم بتأثير اللفظ وسحر الكلمة، وأختلط الإسم بالمسمى في عقيدة هذه الأقوام[١].

---

(١) المدخل الى علم اللغة: د. رمضان عبد التواب، نشر مكتبة المتنبي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣هـ: ص٣.

فمتى نشأت اللغة، وعند أي قوم بدأت وأرتقت، وما هي الضابطة التي من خلالها تعلم الإنسان اللغة، بحيث مثلت وجوداً لا يمكن للإنسان أن يعيش دونها. وحين نقول بأن الإنسان لا يستطيع العيش دونها، معنى ذلك بأنها متى ما سلبت منه فلن يكون حينها إنساناً، بل نوعاً من أنواع الحيوانات الأخرى.

فنحن عندما نقول بأن الإنسان حيوان ناطق نريد أن نميزه عن الأنواع الأخرى من الحيوانات التي ينعدم عندها إدراك الكليات والمفاهيم المجردة.

وعندما نقول إدراك الكليات يعني هناك عمليات عقلية متحصلة عند الإنسان للوصول الى العلم، يختلف بها عن الحيوان، وهي غير العلم الحسي الذي تناله النفس بالحواس الخمس، ولا العلم الخيالي الذي هو الصور الحسية التي تحفظ بالذهن بعد زوال إتصالها بالمحسوس الخارجي، وهي غير العلم الوهمي الذي تدرك به المعاني الجزئية التي

لا مادة لها ولا مقدار كحب الأبويين وخوف الخائف.

فنحن نتكلم عن علم عقلي عالي، يفترق به الإنسان عن الحيوان، وهذا العلم يحصل بقوّة العقل والفكر الذي لا تقف عند حد معين، يستطيع الإنسان أن يدير دفة مدركاته الحسية والخيالية والوهمية، ليميز الصحيح منها من الفاسد، ثم ينتزع المعاني الكلية من جزئياتها. فيتعقلها ويقيس بعضها على بعض، وينتقل من معلوم الى آخر، ليستنتج ويحكم ويتصرف حسب قدراته العقلية شدّة وضعفاً[1].

وعندئذ إذا كان الإنسان بما هو إنسان قد ميز منذ وجوده الأولي عن باقي الحيوان بهذه الخاصية التي ينتزع بها المعاني الكلية من جزئياتها، فلابد من وجود وسيلة يظهر بها تلك الإدراكات، ومن غير المعقول أن تبقى تلك الإدراكات عبارة عن وجودات ذهنية، لا يمكن أن ينتزع منها وسيلة تواصل مع الآخرين لتكون مفاهيم تبنى من خلالها مسيرة الإنسان

(١) ينظر: علم المنطق، للشيخ محمد رضا المظفر، ج١.

الطويلة في هذا الوجود الممتد بآثاره وإحتياجاته.

ولو لم تكن اللغة هي الحاضنة والراعية لهذه المفاهيم، بحيث تكون القالب المناسب لها، لما تمكنا من إظهار ذلك المائز بين الحيوان والإنسان، ولبقي الإنسان في سلّم الحيوان، ولن يستطيع الترقي والترفع عنه، وكيف لنا أن نميز من دون وجود اللغة التي تنقل لنا الأفكار والمشاعر، ليتشارك كل فرد إنساني مع الآخرين في تبادلها. فهل نعتمد على توارد وتخاطر الأفكار؟ فحتى الحاسة السادسة لن تستطيع أن تفي بهذا الغرض. وحتى وإن تحرك الحس المشترك في معرفة ظواهر الأشياء كاللون والحجم والرائحة في البعد المادي، بل حتى بالبعد المجرد لتلاقح الأفكار، بحيث يقرأ كلّ منّا ما يدور بعقل الآخرين من فكر وتصور.

بل كيف يتسنى لنا الحفاظ على إرث الأفكار، وبنائها التعاقبي، حتى تجتمع كلها لتظهر لنا بصور وأبنية مختلفة، ولكنها لا تتعدى نسيجاً معرفياً واحداً إتكأت عليه في البناء

الحضاري الماثل بين أيدينا الآن، وإننا نستطيع القول بأن الإنسان لا يمكن أن يتصل بأجداده الأقدمين إلّا عن طريق اللغة، فهي الموصل والمغذي الذي تتغذى عليه الإنسانية في بقائها وإستمرارها، وهذا خلاف ما ذهب إليه الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي (جون هرمان راندال)، عندما يقول في كتابه (تكوين العقل الحديث): (إن الإنسان يتصل بأجداده الأقدمين عن طريق العقل)[1].

نعم العقل هو أحد عوامل الإتصال، ولكن لولا اللغة لما تمكنا من الإتصال بعالم الأجداد القديم. بل حتى العقل لو ترك لوحده لكان كالصحراء قاحلاً أجدباً من دون اللغة. فاللغة تشكل مع العقل الماء الذي تُسقى الأرض به، وكلما زادت وفرة اللغة، زاد إرواء أرض العقل، ولأعطتنا أروع الثمرات.

---

(١) تكوين العقل الحديث: جون هرمان راندال، ترجمة جورج طعمة، نشر سلسلة ميراث الترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م: ج١، ص٤٣.

ولأهمية اللغة في البناء الحضاري، وتكامل الإنسان، لنأتي ونحاول أن نبين هل أن اللغة وجدت مع الإنسان، وجوداً دفعياً، أم انها مرت بمراحل تعاقب فيها الإنسان شيئاً فشيئاً لتعلمها واكتساب ألفاظها، فهنا عندنا عدّة نظريات بهذا الشأن.

نظريات نشوء اللغة

يمكن تقسيم نظريات نشوء اللغة الى قسمين:

الأول: نظريات علماء اللغة.

الثاني: نظريات علماء أصول الفقه.

نظريات علماء اللغة

نحن نتصفح آراء اللغويين بإعتبار هذا الأمر من صميم إختصاصهم ودراستهم لعوامل نشوء اللغة وتطورها، وإن إرتأى بعضهم أن يطوي عنها كشحاً، وإن البحث في هذا المجال لن يجدي نفعاً، لأنه عبارة عن رجم في الغيب ولا يستند القول فيه الى ركن شديد ورأي سديد أو برهان علمي يتقدم بإحصائيات دقيقة وبيانات واضحة.

وقد ظهرت في ذلك عدّة نظريات مختلفة تحاول أن تفسر لنا، كيف تكلم الإنسان الأول هذه اللغة، التي تطورت

على مر الأزمان، حتى وصلت إلينا في صورها المختلفة الراهنة. وقد نادى بعض اللغويين المحدثين بإخراج موضوع نشأة اللغة، من موضوعات علم اللغة: أمثال (فندريس vendryes) الذي يرى ان غالبية اولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام، منذ مائة عام، يهيمون في تيه من الضلال، وغلطتهم الأساسية، أنهم يواجهون هذه المسألة من الناحية اللغوية، كما لو كان أصل الكلام، يختلط بأصل اللغات.

فإن اللغويين يدرسون اللغات، التي تتكلم والتي تكتب، ويتتبعون هذا التاريخ بمساعدة أقدم الوثائق التي تم إكتشافها، ولكنهم مهما أوغلوا في هذا التاريخ فإنهم لا يصلون إلّا الى لغات قد تطورت، وتركت وراءها تاريخاً ضخماً، لا نعرف عنه شيئاً، أما فكرة الوصول الى إعادة بناء رطانة بدائية، بمقارنة لغات موجودة بالفعل، فسراب خدّاع[1].

---

(١) المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث، مصدر سابق: ص١٧.

والعلماء والمفكرون لم يختلفوا في شيء من مسائل علم اللغة، كما اختلفوا حول موضوع نشأة اللغة. وقد تنوعت آراؤهم، واختلفت مذاهبهم، ومع ذلك لم يصلوا في بحثهم الى نتائج يقينية، بل كان جلّ آرائهم يصطبغ بالصبغة الشخصية، ولم يتجاوز مرحلة الفرض المبني على الظن والحدس. وفي ذلك يقول "ماريو باي": (فيما يختص بنشأة اللغة وطبيعتها، لدينا مصادر تعتمد على الأساطير والحديث المنقول والمناقشات الفلسفية، ولكن تنقصنا الحقائق العلمية في هذا الصدد)(١).

وقد قررت الجمعية اللغوية في باريس، عدم مناقشة هذا الموضوع نهائيـاً، أو قبول أي بحث فيه لعرضه في جلساتها، كما أن كثير من العلماء، ذو الشهرة الذائعة، والقدم الثابتة في اللغة، أمثال: (بلو مفيلد Bloomfield) و (فيرث Firth) لم يتعرضوا لدراسة هذا الموضوع بشكل علمي، أو بصورة

---

(١) المصدر نفسه: ص٩٥.

تنبئ عن أهمية البحث فيه.

كما أن بعض من علماء اللغة، سخروا حتى من مجرد التفكير في إدراج هذا الموضوع، ضمن بحوث علم اللغة[1].

والحقيقة أنه لا يوجد مبرر لمثل هذا الإبتعاد عن معرفة أمر مهم بل هو في غاية الأهمية، وخصوصاً إنه مرتبط بالإنسان وبمراحل رقيه التي تمثل بدايات المعرفة التي أسست لبناء الحضارة الأولى. علماً أن العلماء وبمختلف إختصاصاتهم وإهتماماتهم قد تناولوا موضوعات أخرى بالبحث الجاد والمكثف، ولاقوا في سبيل ذلك ما لاقوا من الصعاب والظروف الصعبة، أكثر بكثير من مسألة معرفة نشوء بدايات اللغة عند الإنسان، ولم يتراجعوا ولم يعدّوا البحث عنها ضرباً من الأساطير أو يتعرضوا الى السخرية والتهكم. بل على العكس هناك كثير من البحوث والنظريات قد إهتمت بمسائل أقل بكثير من أهمية موضوع نشأة اللغة،

---

(١) المصدر نفسه: ص٩٥ بتصرف.

وقد تلقوا الدعم والإسناد المجتمعي والدولي، من أجل إكمال ما تبنوه من فرضيات.

وعلى الرغم من أنهم يدركون جيداً بأن الوصول الى معرفة متى نشأت اللغة ومتى استخدم الإنسان الألفاظ لتكون دالة على معاني مقصوده، سوف يحل كثير من التساؤلات، وسيضع النقاط على حروف علوم مختلفة، تكون بأمس الحاجة لهذه المعرفة كعلم الإجتماع وعلم النفس والأنثربولوجيا وعلم الأديان وغيرها، بل الأكثر من ذلك نستطيع أن نعرف ما سيؤول له مستقبل البشرية، وكيف ستكون ابعادها الفكرية والعقائدية، ومدى تأثيرها على الفرد. فماذا نقول عن نظرية دارون في النشوء والإرتقاء التي لم تزل تعاني من وجود كثير من الفراغات لم تسد لحد الآن.

فمثلاً ان الذين يجهلون المشاكل الخاصة التي يواجهها العلماء الذين يحاولون تفسير أصل الحياة، ربما ليس واضحاً لهم أن استدعاء (الانتخاب الطبيعي) لا يساعد في

تفسير نشوء الحياة الأولى، إذ إن كان الإنتخاب الطبيعي والطفرات في نهاية المطاف، قادرين على إنتاج معلومات جديدة في الكائنات الحيّة. فلماذا لا يمكنها ذلك في بيئة ما قبل الحياة؟ وهذا الذي يجعل (تيوديسيوس دوزانسكي) – وهو أحد مؤسسي النظرية التركيبية الداروينية الحديثة المعاصرة – يقول بطلاقة: الإنتقاء الطبيعي ما قبل الحيوي هو مصطلح متناقض، أو كما يشرح عالم الأحياء الجزيئية والباحث في أصل الحياة، الحائز على جائزة نوبل (كريستيان دي دوف) بأن نظريات الإنتقاء الطبيعي ما قبل الحيوي فاشلة، لأنها تحتاج الى المعلومات، بما يعني أنها تفترض سلفاً وجود ما عليها أن تقوم بشرحه في المقام الأول. فيبدو أنه من غير الكافي استدعاء عملية تبدأ عملها فقط بعد وجود الحياة – أو بمجرد ظهور المعلومات البيولوجية – لتفسير

أصل الحياة أو أصل المعلومات الضرورية لإنتاجها[1].

ولكن بالرغم من ذلك حاز كتاب أصل الأنواع لداروين على اهتمام الوسط العلمي بشكل صاعق، فمحاكاة داروين للإصطفاء الإصطناعي كانت قوية للإصطفاء الطبيعي والتباينات العشوائية سهلة الإدراك، ومهارته في تشتيت الآراء المضادة منقطعة النظير. فوق ذلك، كانت حجته المنصبة على تفسير الأصل العام المشترك مؤسسة بمهارة متقنة، وفي نهاية (أصل الأنواع) بدا للكثير أن داروين قد فنّد الإعتراضات الممكنة الطرح ضد نظريته بإستثناء واحد منها. وبغض النظر عن رؤية الإصطناع الخاصة به، إلّا أن هناك مجموعة واحدة من الأدلّة اشكلت على داروين، وهي مجموعة اعترف بها وعرف أن نظريته لا تقوى على شرحها كفاية، على الأقل حتى يومه ذاك. لقد كان داروين متحيراً

---

(١) شك داروين: د. ستيفن ماير، ترجمة د. موسى إدريس، د. مؤمن الحسن، نشر مركز براهين للابحاث والدراسات، ط١، ٢٠١٦م: ص٢٠.

بوجود نمط في السجل الأحفوري بدا أنّه يوثق الظهور الجيولوجي المفاجئ للحيوانات، في الحياة في غضون فترة وجيزة من التاريخ، وقد اطلق على تلك الفترة العصر السيلوري، لكنها عرفت لاحقاً بإسم العصر الكامبري"[1].

وفي هذا السياق يقول الدكتور ستيفن ماير والذي يفصل الكلام في اطروحة التصميم الذكي والتي حاول فيها كسر التابو الدارويني لتقديم تفسيرا يتسق مع الاكتشافات العلمية المعاصرة، فالخلية الحية التي لم تكن عند العلماء في عصر داروين سوى مادة هلامية بسيطة لا تعقيد فيها، فقد بان في العصر الحالي أنها مصنع حيوي متكون من العديد من الجزئيات الوظيفية التي يعتمد بعضها على بعض في صورة بالغة التعقيد والتركيب، هذا التعقيد الذي لا يمكن تفسيره بالتطور التدريجي الزمني البطيء والمعتمد إعتماداً جوهرياً على تراكم آثار الطفرات، لتعمل عملها السحري المجهول

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٤.

في إبداع الأنواع.

ثم يقول: من الواضح أن النظرية التطورية المعيارية قد وصلت الى طريق مسدود، إذ لا الداروينية الجديدة ولا الأطروحات الحديثة (التوازن المتقطع، التنظيم الذاتي، البيولوجيا النمائية التطورية، الإنتقاء المحايد، الوراثة فوق الجينية، الهندسة الجينية الطبيعية) نجحت في شرح نشوء الأشكال الحيوانية الجديدة، التي ظهرت في الحقبة الكامبرية. مع ذلك اشتركت كل هذه النظريات التطورية بأمرين: اعتمادها على العمليات المادية البحتة، وفشلها في تحديد سبب قادر على توليد المعلومات الضرورية لإنتاج الأشكال الحية الجديدة.

ثم يقول: وهنا يطرح السؤال التالي: هل من الممكن إيجاد سبب مختلف وغير متوقع يوفر شرحاً أوفى لنشوء الأشكال والمعلومات الجديدة – بالإضافة الى الخصال الأخرى المميزة – الظاهرة في الإنفجار الكامبري؟ تحديداً،

هل من الممكن أن يلعب التصميم الذكي – الفعل الهادف لكائن واع وعاقل – دوراً في الإنفجار الكامبري؟

وكيفما طرحت مسألة التصميم الذكي، ستجد في الغالب صعوبة كبيرة في إقناع بيولوجي تطوري معاصر ليرى أي داع لتدارس فكرة كهذه، أو لتجعله يقبل النقاش بأن التصميم يلعب دوراً في البيولوجيا على الإطلاق، مع أن العديد من علماء البيولوجيا اليوم يعلمون النقائص الحادة في نظريات التطور المادية، لكنهم يقاومون قبول بدائل تتضمن إرشاداً ذكياً أو توجيهاً أو تصميماً. ويأتي الكثير من هذه المقاومة ببساطة من عدم فهم حقيقة نظرية التصميم الذكي، فالعديد من خبراء البيولوجيا التطورية هؤلاء يرون أن التصميم الذكي فكرة ذات اساس ديني، أي أنها ضرب من الخلفية التوراتية، وآخرون يعتقدون إنكار هذه النظرية لكل أشكال التغير التطوري، لكن على النقيض من التقارير الإعلامية، فإن التصميم الذكي ليس فكرة توراتية، إنه نظرية مبنية على

الدليل حول بدايات الحياة، وتتحدى بعض – وليس ككل – معاني مصطلح (التطور)[1].

فالذي نريد قوله بأنه ليس من حق أي شخص أن يعارض العمليات الفكرية والعلمية سواء على مستوى الفرضيات أو النظريات، التي تحاول جاهدة الوصول الى تقديم أصول يعرض من خلالها النشوء الأولي للغة، حتى وإن ظهرت بعضها بحجة ضعيفة أو يصفها البعض هي أقرب للخيال والأساطير، فلا بأس، فقد تختفي بعض العوامل الدخيلة في إكتشاف ومعرفة أصل ظهور اللغة لفترة ما، حتى وإن طالت، وذلك لدقة الأسباب الموصلة لذلك، وعدم حضورها الواضح في مسرح البحث والتنقيب، وهذا لعله راجع الى التزمت والإلتزام الشديد في البحث وقصر النظر على الأسباب المادية التي تفرزها الطبيعة، والتي غالباً

---

(١) للتوسع أكثر حول هذا الموضوع يراجع كتاب شك داروين: د. ستيفن ماير، ص٥٣١ وما بعدها.

ما تجود بالأخبار والأمور القليلة، وتدع وراءها الكثير من التساؤلات والأمور التي تحتاج الى تفسير وإجابات، وهي تضن بها لتكافيء من يجدّ في عمله باحثا عن الحقيقة أو عن معطيات علمية تساهم بشكل وآخر في عجلة التقدم البشري.

وعلى أقل التقادير، بدلاً من رفض وعدم قبول الفرضيات أو النظريات التي تبدو فاقدة الى الدليل الحسي في وقتها، وضعها على محمل الإحتمال الذي من الممكن حدوثه واعتباره من ضمن الإستدلالات التي تدرج أو تصاغ على أسس ومباني الإستدلال التراجعي[1]، الذي نادى

---

(١) الإستدلال التراجعي: عند علماء التاريخ استدلال بصيغة منطقية متميزة، ويعرف تقنياً هذا النوع من الإستدلال بالاستدلال التراجعي. ففي القرن التاسع عشر وصف المنطقي الأمريكي بيرسي هذه الصيغة من الإستنتاج وميزها عن صيغتين أكثر شيوعاً، هما الإستدلال الإستقرائي، والإستدلال الإستنباطي، وكتب اننا في الاستدلال الاستقرائي نستنتج القواعد العامة من حقائق معينة، بينما في الاستدلال الاستنباطي نطبق القواعد

العامة على حقائق معينة، في سبيل استنباط نتائج محددة. أما في الإستدلال التراجعي فإننا نحصل على استنتاجات حول أحداث – أو أسباب– في الماضي بناءً على دلائل أو حقائق في الحاضر. لرؤية الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة من الإستدلال، أنظر الحجج التالية:

* حجة استقرائية:

أ١ هي ب

أ٢ هي ب

أ٣ هي ب

أ٤ هي ب

أ٥ هي ب

إذن: كل أ هي ب

* حجة استنباطية:

الإفتراض الأساسي: إذا حصلت أ، فستحصل ب منطقياً.

الإفتراض الثانوي: أ حصلت.

النتيجة: كذلك ستحصل ب.

* حجة تراجعية:

الإفتراض الأساسي: إذا حصلت أ، نتوقع منطقياً حصول ب.

الإفتراض الثانوي: تم ملاحظة الحقيقة المفاجئة ب.

النتيجة: إذن هناك سبب للظن بوقوع أ.

به المنطقي الأمريكي "بيرسي" في القرن التاسع عشر والذي استند عليه علماء التاريخ في كثير من ابحاثهم، وإعتبارها من وجهة النظر العلمية من الأسباب المحتملة في حدوث الأثر.

وهنا يحتاج الباحث الى زاوية ابستمولوجية أخرى للنظر من خلالها، لإكمال مبانيه المعرفية، حتى وإن اضطر الى الإعتماد على موقف أنطولوجي يحاكي من خلاله هذا الكون الوسيع، وهذه الزاوية هي التي لا تروق الى كثير من أصحاب النزعات المادية والإتجاهات الإلحادية – والتي جعلتهم يرفضون نظرية أو اطروحة التصميم الذكي – ولكنها على كل حال زاوية موجودة، وهناك كثير من نور المعرفة يمكن أن يشاهد من خلالها. وقد تكون من خلال الخطاب اللاهوتي للإنسان، فصاحب ذلك الخطاب أعلم بخفايا الأمور، وهو أدرى بحجم ومقدرة الإنسان وهو يسعى في معرفة وكشف أسرار وخفايا الكون. والعجيب أنّه عندما يبين للإنسان الوجود والنشأة لبعض الأشياء، ويجعلها

حاضرة أمامه، يشيح بوجهه عنها، ويبقى مصرّاً بعناده، محاولاً أن يجد مبرراً وحلاً يقوم على أساس التجربة والحس، بالرغم من أن تفسير الحالة أو الظاهرة يجده بين طيات كتاب الله تعالى. ومتى ما عجز عن الوصول الى إيجاد الدليل الحسي ظلّ حائراً يتخبط ويكابر ويقول ستكشف الأيام ما كان مخبوءاً، وهو يقصد ايجاد الشيء الحسي، ولا يرضى بأية نتيجة تظهر له حسب الإستنتاجات العقلية المجردة.

والآن لنأتي ونستعرض بعضاً من النظريات والآراء، التي حاول العلماء بها تفسير نشأة اللغة الإنسانية. مع بعض التوضيح والنقد إن إحتاجت لذلك.

المذهب الأول: مذهب الوحي والإلهام

أو مذهب "التوقيف" كما يقول ابن فارس اللغوي، ويتلخص هذا المذهب، في أن الله سبحانه وتعالى، لما خلق الأشياء، ألهم آدم عليه السلام أن يضع لها أسماء فوضعها.

ويستند اصحاب هذا المذهب الى أدلة نقلية مقتبسة من الكتب القديمة، فاليهود والنصارى يستدلون بما ورد في التوراة من قولها: (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء فأحضروها الى آدم، ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية، فهو اسمها، فسمى آدم جميع البهائم، وطيور السماء وجميع حيوانات البريّة) سفر التكوين ٢/ ١٩ – ٢٠. ويستدل اصحاب هذا المذهب، من علماء العرب، بقوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) البقرة: ٣١، فكان ابن عباس يقول: (علمه الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها). وقد إختار ابن فارس اللغوي في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) هذا المذهب. أما ابن جني، فقد تصدى لشرحه والرد عليه، فقال: (وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدم آدم على أن يكون واضع

عليها)[1].

ولنا في هذا المقام توضيح وبيان:

الحقيقة إن مسألة خلق الله للأشياء ثم إلهام آدم عليه السلام بوضع الأسماء لها، عملية تحتاج الى بيان، ولعل بيانها من جهة فلسفية يكون أقرب لدفع الإشكالات التي تثار على أتباع هذا الرأي، فمن الثابت والمتيقن أنه عندما خلق الله تعالى الأشياء لابد أن يكون لها نحو تمايز فيما بينها، وجزء من هذا التمايز هو اللغة التي توجد عند المخلوقات كلٌّ بحسبه، والحاجة التي ينمو ويتكامل بها، أو قل التي تحقق الغرض من وجوده، ولا يوجد شيء يشذ عن هذه القاعدة، وكما عبّر عن ذلك في لغة الفلسفة والعرفان (ان كل شيء في هذا الوجود ينطق) وجهة النطق هي أحد الجهات التي ينال بها كماله، ولولا جهة النطق عند المخلوقات لما

---

(١) المدخل الى علم اللغة: د. رمضان عبد التواب، نشر مكتبة المتنبي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣هـ: ص٩٦.

تمكنت من ترتيب أمورها والحفاظ على تجمعاتها وتكاثرها واحتياجاتها. ومن أبسط تركيب فيها الى أعقد التركيبات التي تزداد فيها النسبة التي تؤثر في هذا الوجود من ناحية عظمة تنوع الخلق، وتباين الوظائف فيها، أو لعلها تساهم في إمداد الطبيعة بعناصر البقاء والديمومة. وقد يتمكن الإنسان من معرفة جزء من هذه الإسهامات، وقد يخفى عليه كثير منها، الى أن يأتي اليوم الذي تنكشف فيه جميع الحقائق أو أغلبها، ولعل ذلك سيكون سبباً رئيسياً في استغلال كل مخلوقات هذا الوجود للحفاظ على الوجود نفسه، الذي يعبر ويتعدى المحيط الحيوي ونظامه الايكولوجي من سطح الأرض والماء والهواء، الى ما هو أوسع من ذلك بكثير، حتى يمد حبل تحرك الإنسان الى مسافات أكثر بكثير مما كانت في السابق، فتصوركم ستكون الحياة حينها واسعة وسعيدة، وتنعم بوضع كل إنسان بل كل مخلوق في محلّه المناسب له. أو قل تهيئة الأسباب التي تناسب طبيعته والهدف الذي وجد من أجله.

المهم الآن لنأتي ولنبحث عن دلائل تفيدنا في هذا المقام، وأظن بأننا لن نظفر بعلم وتصديق ذي بال، لا بالمنهج التاريخي ولا الوصفي ولا التجريبي ولا المناهج التراكمية ولا التزامنية ولا غيرها، ولا حتى بالبعد الدلالي، ولا بالإستقراء ولا بالإستنباط، وحينئذ ماذا علينا أن نفعل هل نستسلم ونغلق أفكارنا قبال هذه الأمور عاجزين أو ننتظر مكتشفات أثرية وحفريات تجود علينا بها قشرة الأرض لنبحث فيها عن اللسانيات الأنثروبولوجية أو غيرها.

إذن حتى نتحرك علينا أن لا نقف، وفي أقل التقادير أن نبقى نراوح لتبقى دماء المعرفة تجري في العروق، حتى ننطلق من جديد نحو البحث والنظر لجهة قد أهملها اصحاب العلوم المادية الذين أصرّوا على أن لا تحقق، إلّا بالتجارب الحسيّة، وكما يقول اصحاب النظرية المادية الجدلية: بأن العالم المادي هو الحقيقة الوحيدة الموضوعية الموجودة خارج شعورنا.

هذه النظرة يوفرها لنا النص الديني من خلال لغة الخطاب بين الله تعالى وبعض مخلوقاته، أو بين بعض المخلوقات فيما بينها، حتى وإن كان هناك تباين بالجنس والنوع بينها، فهناك أربعة خطابات بيّنة الدلالة قد أجراها الله تعالى مع بعض مخلوقاته وهي:

الأول: خطاب الله تعالى مع الملائكة.

الثاني: خطاب الله تعالى مع إبليس.

الثالث: خطاب الله تعالى مع آدم.

الرابع: خطاب الله تعالى مع المخلوقات الأخرى.

والشيء الملفت أن بعضاً من هذه الخطابات قد حدثت قبل النزول الأرضي لآدم، بل منها خطابات وقعت حتى قبل أن يخلق آدم عليه السلام، أو حتى قبل تخلق الأرض كما حدث مع الملائكة.

وهناك حوارات قد حدثت فيما بين المخلوقات نفسها،

والذي يهمنا منها ثلاثة وهي:

الأول: مستوى الحوار بين إبليس وآدم وزوجته الذي حدث قبل خروجهما من الجنّة.

الثاني: مستوى فهم لغة المخلوقات الأخرى التي تصنف مع الأنواع المباينة للنوع الإنساني.

الثالث: مستوى الخطاب الذي جرى بين ابني آدم في بدايات نشوء المجتمع الإنساني، أو قل بدايات تشكيل نواة الأسرة المؤنسنة.

أما خطاب الله تعالى مع الملائكة، فنختار بعضاً من الآيات التي بينت ذلك والتي منها:

- (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ*وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي

بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ*قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) سورة البقرة: ٣٠-٣٢.

- وخطاب الله تعالى مع إبليس نختار بعضاً من الآيات:

- (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ*قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ*قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ*قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ*قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ*ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ*قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ) سورة الأعراف: ١٢-١٨.

- وفي آيات من سورة الحجر قال تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ*قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا

فَإِنَّكَ رَجِيمٌ*وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ*قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ*قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ*إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ*قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) سورة الحجر: ٣٢-٤٠.

- وأما خطاب الله تعالى مع آدم عليه السلام فنختار بعضاً من الآيات منها:

- (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ*فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ*فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) سورة البقرة: ٣٥-٣٨.

- وأما خطاب الله تعالى مع مخلوقاته الأخرى فمنها خطاب الله تعالى مع السماء والأرض، وجوابهما له سبحانه:

- (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) سورة فصلت: ١١.

- وأما مستوى الحوار بين إبليس وآدم وزوجته، فكما جاء في الآيات المباركة التالية:

- (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ*فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ) سورة طه: ١٢٠-١٢١.

- (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ*وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ* قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ*قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) سورة الأعراف: ٢٠-٢٤.

- وأما مستوى الحوار بين الإنسان والمخلوقات الأخرى التي تشترك معه في وجوده الأرضي أو مستوى فهم اللغة التي يتكلم بها غيره، فيمكن أن نراه في الآيات المباركة التالية:

- مستوى فهم لغة تلك النملة التي حاولت أن تحذر قومها من سليمان وجنوده، وعندها تبسم سليمان عليه السلام ضاحكاً من نباهة وشعور النملة بمسؤوليتها الإجتماعية مع النمل، بحيث حذرت قومها من الدمار والهلاك الذي قد يأتي من قبل جيش سليمان وهم غير شاعرين بوجودهم. وكما جاء في الآيات الكريمة: (وَحُشِرَ

لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ*حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ*فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) سورة النمل: ١٧-١٩.

- وكذلك الحوارية التي جرت بين النبي سليمان وبين طائر الهدهد، عندما رجع من بعد غيابه غير المعلوم، ليبرره بعرض قضية إطّلاعه على سبأ وملكتها بلقيس عساها أن تشفع له في مسألة العفو عنه، حيث قال تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ*لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ*فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ*إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ* أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) سورة النمل: ٢٠-٢٨.

وأما مستوى الحوار الذي دار بين ابني آدم، فالآيات التالية تظهره:

- (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ

مِنَ الْخَاسِرِينَ*فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) سورة المائدة: ٢٧-٣١.

مستويات الخطاب المحتملة
لآدم عليه السلام

والآن لو أتينا الى هذه الآيات ومستوى الخطاب الذي جرى فيها، واللغة المطروحة من خلال هذا الخطاب، وتساءلنا هل كان هذا الخطاب على نحو أحد الإحتمالات التالية:

أولاً:

على نحو إطلاق الأصوات العشوائية فقط، دون الإنتقال الى مرحلة الكلام، ومن ثم تركيب الجمل. فيكون هناك فهم خاص بين صاحب الخطاب والمتلقي من دون أن يكون هناك أي تدخل بالمعنى اللغوي المتعارف.

ثانياً:

أن يكون على نحو الإلهام، فيكون المخاطَب يفهم ما يريده صاحب الخطاب على نحو الميل القلبي والشعور

الوجداني، الذي يتعدى مرحلة الخاطر والهاجس، الى مرحلة اليقينيات بتلك الإلهامات الواردة على القلب، ليتخذ بعدها القرار أو التصرف المناسب مع المستوى العقلي في تلك المرحلة الأولى أو البدئية لنشأة الإنسان. فيكون حينئذ لا صوت يداعب أذن السامع كزقزقة العصافير أو صوت المذعور الخائف أو أي صوت من أصوات الطبيعة كهرير الماء أو حفيف الأشجار أو دوي الريح أو حتى هفيفها.

ثالثـًا:

أم كانت تلك الخطابات والإجابات تصدر على نحو الإشارة والحركات الإرادية ذات البعد القصدي في ما نريده من تلك الحركات والإيماءات، لتأخذ بالتالي مقام الحجية من باب الإستدلال بها في مقام التكليف وغيره، وليس على نحو الهزل والمراد غير الجدي في اللحظة المرصودة. وحينها ستنتقل من مجرد حركات وإيماءات الى نصائح وتوجيهات تبنى وتتضح سعادة أو تعاسة الإنسان من

خلالها، وفي أدق التفاصيل وأكثرها إرتباطـًا بوجوده، أو قل في صميم وجوده، وليس بأي معنى آخر.

رابعـًا:

أم كان الخطاب لغويـًا كاملاً بأصواته وبنيته ودلالاته وتركيبه بجمله التامة، الدال على القصدية في إيصال المعنى المطلوب وإحضاره في ذهن الآخر، لتكون اللغة نظامـًا علاميا له خصائصه التي تميزه عن الأنظمة العلامية الأخرى، وهو عنصر مشترك لأرومات بشرية إحيائية وإجتماعية مختلفة.

والإجابة عن ذلك تكون بالشكل التالي:

أما بالنسبة الى مسألة الأصوات بإعتبارها هي وسيلة التفاهم الأولى عند الإنسان، فهذا بعيد عن المنال وذلك لعدة أسباب منها:

١ – إن مسألة الاصوات هي مسألة ثابتة ومتأصلة عندما

وجدت الحيوانات بأنواعها المختلفة، فكان لكل حيوان صوته الخاص به، لا بل حتى للريح صوتاً وللماء صوتاً، وغير ذلك من الأشياء، وقد ثبت أن هذه الأصوات التي تصدرها الحيوانات هي لغة وإشارات تستخدمها فيما بينها للتعبير عن الجوع أو العطش أو الخوف من خطر ما أو لأغراض التزاوج أو حتى اللعب.

وهذا الأمر ثابت لها منذ وجودها على هذه الأرض ولم تحتاج الى فترة من الزمن حتى تتعلم وتكتسب ذلك من خلال التجربة وغيرها، ولكن بمجرد ما وجدت، وُجد معها صوتها الخاص بها، والذي تعبر به عن بعض من أحاسيسها وشعورها، حتى وإن كانت بسيطة وساذجة. ويعتبر هذا الشيء من حقها الطبيعي في هذا الوجود، وجزء من كينونتها المكمل لسنخيتها وطبعها، فكما أن الأسد وجد مفترساً ولم يتعلم مسألة الإفتراس بالتدريب والممارسة، كذلك وجد معه الزئير الخاص به من دون الحاجة الى التعلم.

وحينئذ لو كان الإنسان يتعامل بالأصوات فقط، فسيكون حاله كباقي الحيوانات في لغة الخطاب، وذلك لأن أصوات الحيوانات هي سمة بايلوجية عند الجميع، ولا يمكن أن تنفك عنها، وجهازها الذي تصدر منه الأصوات غير مؤهل لتشكيل اللغة التي تصدر من الإنسان، لأنه يمتلك جهازاً نطقياً يختلف عنها جميعاً، وهو مهيأ ووجد لخروج الحروف وتشكيل الكلمات وتركيب الجمل بترددات صوتية مختلفة، ليعبّر من خلالها عمّا يدور في ذهنه ومشاعره، من أجل الإرتباط بالآخرين والتواصل معهم، كونها استجابة ضرورية لحاجة الإتصال بين الناس، لتشكل بالتالي نشاطاً إجتماعياً تتحرك من خلاله أوجه الحياة الإنسانية بجميع صورها. وستكون اللغة عند استعمالها في أول وجود للإنسان حالها حال أجهزة وأعضاء جسم الإنسان كاليد والقدم والقلب والرئتين والعينين والأذنين وهكذا، فهي قد أدت وظيفتها منذ وطء الإنسان الأرض، ولم تتخلف تلك الأعضاء عن

أداء وظيفتها، فكذلك أجهزة النطق عند الإنسان لم تتخلف عن أداء وظيفتها، بإصدار الأصوات المناسبة، لتكون على هيئة حروف تتركب منها الكلمات والجمل التي تعبّر عن غايات ومقاصد متعددة، منذ الوجود الأولي للإنسان. وجهاز النطق قد قام بهذا الدور وأبرز ما عليه القيام به سواء في مرحلة خلق آدم الكامل، أو التهيؤ والتدريب والتعلم بالنسبة لأبنائه أو الأجيال التي تأتي من بعده.

علماً أن جهاز النطق عند الإنسان لم تكن في يوم ما وظيفته منحصرة في إصدار الأصوات والحروف والكلمات، بل له وظائف حيوية أخرى، لم يتخلف عن أدائها. فالشفتين يستخدمان على سبيل المثال لتلقي الطعام، وكذلك تستخدمان صماماً لمنع الطعام من الخروج من الفم، والأسنان تستخدم لتقطيع الطعام ومضغه، واللسان لتقليب الطعام وتذوقه، وأما الأنف وتجويفه فهما حجرة يتكيف فيها الهواء قبل نزوله الى

الرئتين، وأما الحلق فإنه ممراً للطعام والهواء كليهما، وينتهي الحلق بالحنجرة، وفيها الأوتار الصوتية التي تؤدي وظيفة الصمام للرئتين لحفظهما، ولحبس الهواء فيهما عند الحاجة إليه، أما القصبة الهوائية، فإنها الطريق الذي يمر به الهواء الداخل للرئتين أو الخارج منها، وأمّا الرئتان فإنهما لتنقية الدم الموجود بالجسم، بإعطائه الأوكسجين، وتخليصه من ثاني أوكسيد الكربون وهكذا. وعلى ذلك فالنطق في الواقع، ليس أكثر من وظيفة تؤديها هذه الأعضاء، الى جانب قيامها بوظائفها الرئيسية التي خلقت من أجلها[1].

٢- ان الأصوات عند بعض الحيوانات تشبه بعض الحروف التي تصدر من الإنسان وهو ينطق بها، مثل مواء القطة فهو مشابه لصوت حرف الميم حينما ينطق به الإنسان، أو مثل عواء الذئب وكذلك أصوات بعض الطيور التي تشبه نطق

---

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص٢٧ وما بعدها.

حروف السين والصاد أو القاف عند الإنسان وغيرها الكثير.

والحيوانات عندما تصدر مثل هذه الأصوات فإنها في الغالب يكون لها قصد وغاية من وراءها تريد أن تشعر أفراد نوعها بها، أو حتى تكون طريقة لإرسال رسائل التحذير الى الحيوانات الأخرى في حالة وجود خطر ما. وهي بالتأكيد عندما تصدر مثل هذه الأصوات وعدم الانتقال أو إستخدام التنوع في الاصوات، ذلك لأنها لا تمتلك مقومات وأجهزة نطق تعينها على ذلك، لا من حيث الإستعداد، ولا القابلية والقدرة العقلية، ولو كان لها لأستخدمتها، بإعتبارها هي جزء من كيانها ووجودها.

وحينها يكون من غير المنطقي أن يحصر الإنسان لغته ببعض الأصوات التي تصدر نتيجة لفظ بعض الحروف دون غيرها لتكون هي مدار تفاهمه وإرتباطه الإجتماعي مع الآخرين، وهو يمتلك كل مؤهلات تشكيل الحروف

بأصواتها ونطقها المختلف بعضها عن البعض الآخر، والتي عجزت الحيوانات عن الإتيان بمثلها لقصورها الذاتي عن ذلك. وحينئذ يكون من الضروري أن يبرز الإنسان كل قابلياته التي وجدت معه في عالم الطبيعة ليسير بها خطوة خطوة نحو التكامل لتحقيق هدفه المنشود. والتي إبتدأها آدم عليه السلام حيث استخدم كل طاقاته التي تناسب تلك المرحلة من الوجود، وليؤسس لخلافة الإنسان في الأرض، بإعتبارها كأمانة في عنقه وذريته الصالحة، وذلك بإنشاء طرق التربية والتعليم المنوط تكاملها بالوجود الإنساني، وليساهم بعث الأنبياء، وعناصر الوسط الطبيعي كالمناخ والتضاريس والتربة والمياه والتكوين الجيولوجي، والحياة النباتية والحيوانية والموقع الجغرافي في زيادة إنماء وتطور اللغة وإثرائها.

إذن يفهم من ذلك إن مرحلة الخطاب الصوتي التي إفترضنا أن الإنسان الأول قد تعامل بها في تلك الحقبة من الزمن لا يمكن أن تتم، وذلك لوجود قدرة النطق الكامل

التي زود بها من قبل خالقه، ولا يمكن تعطيل هذه الجهة البتة، وخصوصاً لعدم وجود الضرورة الملحة على مثل ذلك، بل على العكس، الضرورة هي المبرر الرئيس لنطق الإنسان، وبلغة قد شملت جميع المخرجات اللغوية في تلك المرحلة من التاريخ.

أما بالنسبة الى مسألة الإلهام وإن الذي جرى من مسائل حواريّة متعلقة بهذا الوصف، فهذا يلاقي عدّة اعتراضات وإشكالات منها:

١- إن الأمر يبدو واضحاً بان الخطاب والحواريات التي جرت كلها كانت تدل بالدلالة التطابقية على وجود نوع من اللغة قد تم تداولها بين الطرفين، ولم يوجد بين أيدينا أية قرينة تؤيد مسألة الحوار الإلهامي، أو هناك تخاطر[1]

---

(١) التخاطر: Telepathy. هو اللفظ الإفرنجي المأخوذ من اللفظ اليوناني "tele" عن بعد و pathein يختبر وهو يعني الإنتقال عن بعد للخواطر والوجدانيات وغيرها من التجارب

Telepathy كما صاغه الباحث النفسي "فريدريك مايرز" عام ١٨٨٢م وذلك نتيجة دراسة أجراها حول إمكانية انتقال الأفكار وتزامنها بين شخصين.

٢- ثم اننا إذا تم عندنا قبول مثل هكذا نوع من الحوارات التي تحدث بالتخاطر، بحيث يتم معرفة الإنتقالات الذهنيـة والعمليات العقلية المعقدة مـن شخص الى آخر،

الشعورية المعقدة، من عقل الى عقل، على سبيل الوصلة، مع الزعم بأن هذا الإنتقال يتم بتغير الوسائل الحسيّة المعروفة.
ويجب تمييز التخاطر عن قراءة الأفكار mind-reading التي يستخدم فيها القارئ وسائل حسية شعورية أو غير شعورية لمعرفة ما يجول في خاطر شخص آخر موجود معه، وذلك بالإستعانة ببعض الدلائل والإمارات وبإستنطاق شواهد الحال؛ وعن القراءة العضلية muscular-reading لخواطر شخص آخر عن طريق القبض على يده، مهتديـاً بالإختلاجات العضلية وبغيرها من الحركات العضلية المصاحبة للتفكير، وتسمى أيضـاً نقل الأفكار Thought tran sference. (المعجم الفلسفي- مراد وهبة، ص١٨٢).

نتيجة إحتمالية الإمكانية في حدوثها، فمن المفروض أن تحدث في مستقبل البشرية ورقيها في مسارات التكامل واستغلال كل تعبيرات الجسد وإيحائاته بصورة دقيقة ومحسوبة، لا أن تحدث في المستوى البدئي للبشرية، وهي لا زالت في دور النمو والإرتقاء.

أما بالنسبة الى مسألة أن الخطابات والإجابات كانت تصدر على نحو الإشارة والحركات الإرادية المقصودة فهي الأخرى تواجه إشكالات متعددة منها:

١- إن مسألة لغة الإشارة والتعبير من خلالها على تلك المفاهيم التي حملت بين طياتها بنى معرفية تنم عن وجود أفق حوار متطور، وليس بالهيّن الإحاطة به بمجرد حركات وإشارات، وإنّما إذا بقينا بنفس السياق، فإننا نحتاج الى زمن طويل نسبياً حتى يتم التدريب على معرفة لغة الإشارات مضافاً الى أنه يجب أن يكون هناك إتفاق مسبق بين الأطراف المتحاورة، سواء إذا كان الخطاب

يحدث بين شيئين يشتركان بالنوع والسنخية أو شيئين مختلفين. وهذا بالتأكيد يحتاج الى مهارات عالية، لتعطي بعد آلي ووظيفي جديد لأعضاء هي بالأصل غير مسؤولة عن إيجاد مثل هذه الحركات والإشارات ذات التعابير الدقيقة والمولدة لكثير من المفاهيم والإدراكات العقلية.

٢- هناك شيء آخر مهم، وهو اننا إذا نبحث أو نحاول أن نوجد وظيفة جديدة لعضو من الأعضاء البشرية، فإننا في نفس الوقت سوف نعطل عضو آخر وجهة ثانية عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها، وهذا سيؤدي بالتالي، الى وجود العبثية في الخلق، عندما يستخدم عضواً محل آخر، أو إجباره على أداء وظيفة مع عدم وجود اللزوم لها أو الإضطرار.

وإما إذا كان الخطاب الإنساني منذ بداياته خطاباً ضمن نظام لغوي خاص، وبحروف وكلمات مركبة، تعبر عن مراد المتكلم، فهذا ما سيظهر جوابه في البحوث القادمة إن شاء

الله تعالى.

المذهب الثاني: مذهب المواضعة والاصطلاح

هذا المذهب ذكره ابن جني. فقال: (إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا، فيحتاجون إلى الإنابة عن الأشياء، فيضعوا لكل منها سمة، ولفظًا يدل عليه، ويغنى عن إحضاره أمام البصر. وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلاً على شخص، ويومئوا إليه قائلين: إنسان! فتصبح هذه الكلمة اسمًا له، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه، أشاروا إلى العضو وقالوا: يد، عين، رأس، قدم .. الخ.

ويسيرون على هذه الوتيرة، في أسماء بقية الأشياء، وفي الأفعال والحروف، وفي المعاني الكلية، والأمور المعنوية نفسها، وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلاً. ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم كلمة: (مَرْد) بدل إنسان، وكلمة: (سَرْ) بدل

رأس، وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية)[١].

وليس لهذا المذهب أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إن ما يقرره ليتعارض مع النواميس العامة، التي تسير عليها النظم الإجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً، ولا تخلق خلقاً. بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية، يتوقف في كثير من مظاهره، على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون. فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟ وهكذا نرى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل[٢].

نعم هذا المبنى يصلح لإيجاد ألفاظ جديدة لمعاني جديدة أو ظواهر لم يكن لها إسم مسبق، فهنا يأتي الواضع

---

(١) المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص٩٧ نقلاً عن كتاب الخصائص، ج١، ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٧.

ليضع قبالها لفظاً، وبالإستعمال يصبح هو سمتها الخارجية. وهذا ما يطلق عليه بالوضع التعييني والقصدي. أما أن نأتي ونضع مذهب المواضعة ليتصدى لبيان نشوء اللغة، فهذا غير ممكن. لأن المواضعة نفسها تحتاج الى لغة مسبقة، فمن أين أتت اللغة؟ وهكذا نقول أن الوضع جاء نتيجة وجود لغة مسبقة، واللغة جاءت نتيجة الوضع، وهذا هو عينه ما يسمى بالدور، والدور باطل، كما هو معروف عند المناطقة، وذلك لإستحالته باعتبار أنه يستلزم تقدم الشيء على نفسه بالوجود واجتماع النقيضين.

المذهب الثالث: مذهب المحاكاة

وخلاصة هذا المذهب أن الإنسان سمى الأشياء، بأسماء مقتبسة من أصواتها، أو بعبارة أخرى أن تكون أصوات الكلمة، نتيجة تقليد مباشر، لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء. وتسمى مثل هذه الكلمات عند علماء الغرب: onomatopoeia.

وقد عرض لهذا الرأي من علماء المسلمين ابن جني، فقال: (وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد).

وأول من دافع عن هذا المذهب من علماء الغرب بالتفصيل العالم الألماني (هردر) في كتابه (بحوث في نشأة اللغة) الذي نشره سنة ١٧٧٢م.

ويقول مؤيدوا هذه النظرية، ما نجده في بعض الأحيان، من إشتراك في بعض الأصوات، في الكلمات التي تحاكي الطبيعة في عدّة لغات، فإن الكلمة التي تدل على (الهمس) هي في العربية – كما نعرف: "همس"، وفي الإنجليزية "Whisper"، وفي الألمانية "فلوسترن" Flustern، وفي العبرية "صفصف"، وفي الحبشة "فاصي"، وفي التركية

"سوسمك" Susmak. فالعامل المشترك بين هذه اللغات جميعها في تلك الكلمة، هو صوت الصفير: السين أو الصاد وهو الصوت المميز لعملية الهمس في الطبيعة.

غير أن اشتراك اللغات في الكلمات المحاكية للطبيعة، على هذا النحو، أمر نادر. ولو كانت هذه النظرية صحيحة، لاحظنا اشتراكاً بين اللغات في الكلمات التي تحاكي الطبيعة، مثل الشق، والدق، والقطع، والصهيل، والعواء، والمواء، وما إلى ذلك.

ويرى بعض العلماء بناء على هذه النظرية، أن مناسبة اللفظ للمعنى مناسبة حتمية، وبمعنى أن اللفظ يدل على معناه دلالة وجوب، لا انفكاك فيها.

ويمتاز مذهب المحاكاة، بأنه يشرح لنا مبلغ تأثير الإنسان، في النطق بالألفاظ بالبيئة التي تحيط به، غير أن أهم ما يؤخذ عليه، أنه يحصر أساس نشأة اللغة، في الملاحظة المبنية على الإحساس بما يحدث في البيئة، ويتجاهل الحاجة

الطبيعية الماسة إلى التخاطب والتفاهم، والتعبير عما في النفس، تلك الحاجة التي هي من أهم الدوافع إلى نشأة اللغة الإنسانية، فإن الرغبة الذاتية في التعبير، والحاجة الماسة إلى التفاهم، كلاهما من أهم الدوافع، التي يجب أن يعتد بها في نشأة اللغة واضطرار الإنسان الأول للنطق بالألفاظ.

هذا وإن المذهب، لا يبين لنا كيف نشأت الكلمات الكثيرة، التي نجدها في اللغات المختلفة، ولا ترى فيها محاكاة لأصوات المسميات، ويتضح ذلك بوجه خاص في أسماء المعاني، كالعدل، والمروءة، والكرم، والشجاعة، وغير ذلك[1].

والآن سنضيف اعتراضاً آخر على أصحاب هذا المذهب له منحى دقي بعض الشيء وهو:

هناك مفاهيم ومعاني كثيرة مجردة كالعدل والشجاعة

---

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، ص٩٧ وما بعدها، وكتاب الخصائص لإبن جني، ج١، ص٤٦ وما بعدها.

والإيثار وغيرها، وهذه المفاهيم ومعانيها عند البشرية كلها واحدة، ولا نكاد نرى لها إختلاف بين كل الشعوب، وهذا يدل على أن هناك شعوراً بشرياً موحداً يُسَقَّط على مثل هذه المفاهيم. وهذا يحدث نتيجة وجود الفطرة السليمة لدى الإنسان، التي أودعها الله تعالى فيه، بحيث مهما حاول الإنسان أن ينحرف عن هذه الفطرة أو يبتعد عنها، إلّا أنّه تبقى لها آثار تخص الفرد نفسه من جهة، والمجتمع الإنساني من جهة أخرى، لتنتج مشتركات لا يمكن الإختلاف فيها، مهما حاول الفرد أن يتغاضى أو يبتعد عنها. فالذي أريد أن أصل إليه إن مثل هذه الأحكام أو المفاهيم تصدر من محل واحد للشعور الإنساني فمن المفروض أن ما سيشكله الفرد من ألفاظ للتعبير عن تلك المفاهيم في عالم الخارج، أن تكون واحدة لا إختلاف فيها، بل هي في الواقع يجب أن تكون أبلغ في التأثير على إيجاد الألفاظ المتساوية بين البشر كلهم، بإعتبار صدق الحكم على تلك المفاهيم المجردة، وهي أقرب للموضوعية بمعناها الدقيق من الموضوعية التي

تجلب من الظواهر الطبيعية التي من الممكن أن تتغير صورها وأصواتها وآثارها بحسب القوى الحسية للإنسان، بإعتبار أن ما يراه بعض الناس جميلاً في الصوت والصورة أو غيرها من الأشياء، فهو قد يكون قبيحاً عند البعض الآخر وهكذا. وهنا سيصعب إيجاد اللغة الموحدة أو المقاربة بين الناس، وهذا على العكس من ناحية النظرة الواحدة الإتفاقية نحو العدل والشهامة والكرم و.. و.. ولكننا بالرغم من ذلك لا نجد أي تقارب أو تشابه في ألفاظ تلك المفاهيم، بالرغم من أنها تنبع من شعور وإحساس موحد لدى كل البشر، وعلى هذا الأساس، فمثل هذه النظرية واقعاً لا تصلح لأن تكون تفسيراً معتداً به لأصل نشوء اللغة.

المذهب الرابع: نظرية التنفيس عن النفس

وتتلخص في أن مرحلة الألفاظ، قد سبقتها مرحلة الاصوات الساذجة التلقائية الانبعاثية، التي صدرت عن الإنسان، للتعبير عن ألمه أو سروره أو رضاه أو نفوره، وما

الى ذلك من الأحاسيس المختلفة، فهذه الأصوات الساذجة، قد تطورت على مر الزمن، حتى صارت ألفاظاً.

ويشرح (فندريس) تصور أصحاب هذه النظرية، لكيفية نشأة اللغة، فيقول: (عند هذا السلف البعيد، الذي لم يكن مخه صالحاً للتفكير، بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة. ولعها كانت في الأصل مجرد عناء، ينظم بوزنه حركة المشي، أو العمل اليدوي، أو صيحة كصيحة الحيوان، تعبر عن الألم، أو الفرح، وتكشف عن خوف أو رغبة في الغذاء.

بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت، بعد أن زودت بقيمة رمزية، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون. ولعل الإنسان وقد وجد في متناول يده هذا المسلك المريح، قد استعمله للإتصال ببني جنسه، أو لإثارتهم الى عمل ما أو لمنعهم منه.. هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق، وأن لم يكن مما يمكن البرهان عليه).

وتعتبر هـذه النظرية ناقصة وغامضة. أما نقصها، فلأنها لا

تبين منشأ الكلمات الكثيرة، التي لا يمكن ردها الى أصوات انفعالية. وأما غموضها، فلأنها لا تشرح لنا السر في أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية، تحولت الى ألفاظ أو أصوات مقطعية، فلهذين الأمرين انصرف عنها اللغويون[1].

ومما يؤخذ على أصحاب هذا المذهب أيضاً، هو أنهم يبنون نظريتهم على أساس أن هناك مرحلة من المراحل البدئية للإنسان كان فيها مفتقداً الى عناصر اللغة التي يمكن عنونتها بالمبادئ الأولية للغة، فالإنسان في تلك البدايات كان فاقداً للتركيبات اللغوية المفهّمة للآخر، حتى وإن كانت قليلة وضمن أطر ضيقة تناسب ذلك المحيط والبيئة. بل كان عندهم أنه مخلوقاً لا يمتلك إلّا الأصوات الساذجة والتي تطورت مع مرور الزمن، وأصبحت ألفاظاً. ولا نعلم كم إحتاجت من الزمن للوصول الى العتبة اللفظية الأولى. فهم أعجز من أن يبيّنوا هذا الأمر، لا بل أنهم لا يستطيعون حتى

---

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص١٠٠.

أن يعطونا أرقاماً تقريبية أو تخمينية. وحينئذ ستتولد إشكالات كثيرة، تثيرها الأديان عن الوجود الأرضي لآدم عليه السلام، ولغة الحوار التي قدمتها النصوص الدينية، مضافاً الى ما يقدمه علم الأركيولوجيا وهو يحكي على لسان آلهته وأبطاله عن الظهور الأولي للإنسان، والحوارات التي رافقت ذلك الوجود.

ثم كيف تمكن ذلك المخ غير الصالح للتفكير، من أن يحول الأصوات المشابهة لصيحة الحيوان، المعبرة عن الألم أو الفرح أو الرغبة في الغذاء الى أن تكون قابلة للتكرار بينه وبين الآخرين، بعد أن يضيف لها قيمة رمزية كما يقول "فندريس" وهو يشرح تصور اصحاب هذا المذهب!.

المذهب الخامس: نظرية الإستعداد الفطري

وهي النظرية التي أذاعها اللغوي الألماني (مكس موللر)، ودعاها نظرية: "دنج دونج" Ding Dong. وخلاصتها أن الإنسان مزود بفطرته، بالقدرة على صوغ

الألفاظ الكاملة، كما أنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه، بأية وسيلة من الوسائل، غير أن هذه القدرة على النطق بالألفاظ، لا تظهر آثارها إلّا عند الحاجة، أو في الوقت المناسب.

وحينما سمّى (مكس موللر) نظريته هذه، بنظرية (دنج دونج) إنما كان يريد أن يشبه هذه القوة الفطرية، بلولب الساعة الملتف في باطنها، ويشبّه حوادث الزمن ببندول الساعة، الذي يتحرك، فيخرج بتحركه القوة الكامنة في الساعة، التي ينطوي عليها اللولب، فالزمن ومقتضيات الأحوال، هي التي تخرج هذه القدرة من حيز القوّة الى حيز الفعل. وكأن النفس البشرية مخزن ممتلئ بالألفاظ، ينفتح شيئاً فشيئاً بمفتاح الزمن ومقتضيات الحياة الواقعية.

ولعل الذي دعا (مكس موللر) الى وضع هذه النظرية، ملاحظة الأطفال، في حياتهم اليومية الحرة، التي تدل على أنهم تواقون الى وضع أسماء للأشياء، التي يرونها ولا

يعرفون لها أسماء، وانهم يبتكرون أسماء لم يسمعوها من قبل، إرضاءً لرغبتهم الفطرية في التكلم والتعبير عن أغراضهم، فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوّة، التي تنشأ عنها الألفاظ.

وهذه النظرية لا تحل المشكلة، فإن لنا أن نسأل صاحبها: كيف ومتى زود الإنسان بهذه الذخيرة اللغوية؟ وكيف انطوت نفسه عن تلك الألفاظ الكاملة؟ وإذا كان قد زود بفطرته بهذه الألفاظ، فلم إختلفت اللغات وتعددت اللهجات؟ فإننا نكاد نجزم بأن آثار القوى الفطرية، لابد أن تكون متحدة الى حد ما. ثم كيف تسنى للإنسان أن يخرج تلك الألفاظ من مكامنها، ويطلقها على المسميات المختلفة؟ وهذه النظرية تنقل الباحث من مشكلة الى مشكلات أعمق منها، وربما كان من أبرز عيوبها أنها تفترض ظهور الكلمة أو الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة لسنة التطور[1].

---

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص١٠١ وما بعدها.

في الحقيقة يجب علينا أن نلتفت الى شيء مهم وهو؛ صحيح ان الإنسان مزود بفطرته بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، كما أنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه، ولكن هذه القدرة على النطق بالألفاظ لا تظهر وحدها عند الحاجة وبدون سبب أو تدخل عوامل أخرى، كما يذهب اللغوي "مكس موللر" حسب نظريته "دنج دونج"، وكأن النفس البشرية مخزن ممتلئ بالألفاظ، فتخرج منه الكلمات حسب الزمن ومقتضيات الحياة، وبإنسيابية تامة. فالأمر ليس كذلك، صحيح ان الإنسان مزود بفطرته بالقدرة والإستعداد على صياغة الألفاظ وأن يضع كل لفظ قبال المعنى المخصص له. ولذلك كان الله تعالى هو المعلم الأول لآدم عليه السلام وكما جاء في الآية المباركة: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) سورة البقرة: ٣١. ومن ثم كان آدم هو من علم أبناءه طريقة التكلم، وهكذا استمر التعلم من الآباء الى الأبناء. ولم تجمد اللغة على ألفاظ معينة، وإنما استمرت بالتطور والنمو بحسب تكثر مفردات الطبيعة والعلاقات

الإجتماعية.

المذهب السادس: نظرية الملاحظة

وصاحب هذه النظرية هو العالم الألماني (جيجر Geiger) فقد برهن هذا العالم على أن أقدم ما أمكنه الوصول إليه، من الأصوات اللغوية الأولى، يعبر عن أعمال أو إرشادات إنسانية. ومن هذه الحقيقة، استنبط أن تلك الأعمال والإرشادات، كانت لا محالة، هي التي لفتت نظر الإنسان الأول، وأثارت إهتمامه، وأنها كانت أول ما عرف الإنسان عن أخيه الإنسان، ولذا تمكنت من نفسه وحلت منها مكاناً حصينا، فإن مشاهدة الإنسان لغيره، وهو متلبس بعمل من الأعمال الهامة، أو متأثرة بحال انفعالية قاسية، أثارت أقصى اهتمامه، وجعلته يتأثر به تأثيراً آليـاً، بطريقة المحاكاة العكسية، فتظهر على وجهه علامات التأثر نفسها، البادية على وجه زميله. وقد حمله هذا الإنتباه الى العمل، وملاحظة أخاه وهو يعمل، على أن تصدر منه، إشارة تلقائية، أو صوت

ساذج معبر عن هذه الملاحظة. وعلى مر الأيام، وبتكرار التجارب المتشابهة، تطورت الأصوات الى كلمات، واستغنى عن الإشارات كلها، أو بعضها على الأقل.

ومع أن وضع هذه النظرية، يعد خطوة أخرى في سبيل حل المشكلة، فإنها لم تستطع أن توضح لنا، بأسلوب مفهوم معقول، كيف وضعت تلك الأصول العامة الأولى، التي يقول صاحب النظرية، إنها تتعلق بأعمال الإنسان أو إشاراته، والتي يعدها الكلمات الأولى، التي اشتقت منها غيرها من الكلمات. على أنه من المتعذر، إرجاع جميع الكلمات التي تتكون منها اللغات كلها، الى تلك الأصول العامة[١].

ويعترض على أصحاب هذه النظرية بإعتراض آخر؛ ولماذا يتأثر الإنسان تأثراً آلياً بطريقة المحاكاة العكسية، فتظهر على وجهه علامات التأثر نفسها، البادية على وجه زميله، فتصدر منه إشارة أو صوت ساذج، معبر عن هذه

---

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص١٠٢ وما بعدها.

الملاحظة، وبمرور الأيام والتكرار تتطور الأصوات إلى كلمات، واستغني عن الإشارات.

بينما الطبيعة البشرية حسب القوة المودعة من الله تعالى فيها تقتضي إفادة مقاصد الإنسان بالألفاظ، فيخترع من عند نفسه لفظاً مخصوصاً عند إرادة معنى مخصوص - كما هو المشاهد من الصبيان عند أول أمرهم - فيتفاهم مع الآخرين الذين يتصلون به، والآخرون كذلك يخترعون من أنفسهم ألفاظاً لمقاصدهم، وتتألف على مرور الزمن من مجموع ذلك طائفة صغيرة من الألفاظ، حتى تكون لغة خاصة، لها قواعدها يتفاهم بها قوم من البشر. وهذا يتوافق مع النظرية الحديثة لنشوء اللغة القائلة بأن اللغة ظاهرة إجتماعية تخضع لمواصفات وشروط الظاهرة الإجتماعية التي منها (التلقائية)، ومن هنا قالوا: إن اللغة تنشأ نتيجة الحاجة الى

التفاهم[1].

المذهب السابع: نظرية التطور اللغوي

لقد تأثر واضعوا هذه النظرية، بنظرية التطور العام، التي أذاعها (دارون) وحاول أن يبرهن على أثرها في جميع النواحي بعامة، وفي حياة الفرد والنوع الإنساني بخاصة، وقد أدت دراسة النمو اللغوي عند الطفل، الى ادعاء أصحاب هذه النظرية، بأن هذا النمو يشبه تطور لغة النوع الإنساني. وهم يزعمون أن لغة الإنسان الأول، سلكت مراحل فطرية متعددة، متمشية مع مراحل نموه العقلي، وهذه المراحل هي:

١ - مرحلة الأصوات الساذجة الإنبعاثية. التي صدرت عن

---

(١) ينظر: دورس في اصول فقه الإمامية. العلّامة د. عبد الهادي الفضلي، نشر مركز الغدير للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ج١، ص٣٤٧.

الإنسان في العصور الأولى، حين كانت أعضاء النطق لديه غير ناضجة.. وإننا نلاحظ نظير هذه المرحلة في الطفل، حين تصدر عنه في أول عهده بالنطق بعض أصوات مبهمة، لا يفهم منها في كثير من الأحيان.

٢- مرحلة الأصوات المكيفة المنبئة عن الأغراض والرغبات. المصحوبة بالإشارات، التي تساعد الأصوات، مساعدة فطرية، في الإبانة عن الأغراض. وقد ساعد على هذا التطور في الأصوات وتكيفها، نمو أعضاء النطق من جهة، ونمو الإحساس والشعور الذاتي لدى الإنسان من جهة أخرى. وتناظر هذه المرحلة في نمو الطفل اللغوي، تلك المرحلة التي يصل إليها في أواخر السنة الأولى... وفي هذه المرحلة من مراحل النمو اللغوي عند الإنسان لم يكن هناك فرق، بين أصوات الإنسان وأصوات الحيوان، الدالة على شعوره بالخوف أو الحنين، أو النفور أو الرضا.. فهو بهذه الأصوات يعبر عن شعوره.

٣- مرحلة المقاطع. وفيها انتقلت لغة الإنسان من أصوات غير محددة المعالم، إلى أصوات محددة، في صورة مقاطع قصيرة، مستنبطة من أصوات الأشياء أو الظواهر الطبيعية. ويبدأ الطفل مرحلة تناظر هذه المرحلة، في الشهور الأولى من السنة الثانية. وذلك حين ينطق بمقاطع متكررة، يطلب بها ما يريد، أو يدل بها على أشياء معينة.

٤- مرحلة الكلمات المكونة من المقاطع. وفي هذه المرحلة تتكون من المقاطع التي سبق الحديث عنها، الكلمات أو الأصول العامة، التي استعملها الإنسان الأول لقضاء حاجاته، والتعبير عن أغراضه ورغباته. ومن هذه الأصول الأولى اشتق الإنسان كثيراً من الفروع، وبالتأليف بين هذه الفروع وتلك الأصول، اكتمل تكوين اللغة الفطرية.

وقد وصل الإنسان إلى هذه المرحلة حين اكتمل عقله، ونضجت أعضاؤه الصوتية، واتسع نطاق حياته الإجتماعية، واشتدت حاجته إلى التفاهم مع غيره.

ويوازي هذه المرحلة عند الطفل، تلك المرحلة التي يستطيع فيها التكلم، كما يتكلم غيره ممن يحيطون به.

٥- مرحلة الوضع والإصطلاح. وهذه آخر مرحلة من مراحل النمو اللغوي. وهي وإن لم تكن مرحلة فطرية، فإنها تقوم على أساس فطري، ذلك هو حاجة الإنسان الملحة إلى الإحتكاك ببيئته.. ومسايرة اللغة التي يستخدمها لتفكيره وعقله. وفي هذه المرحلة، وضعت المصطلحات العلمية، وابتكرت الأسماء الدالة على المسميات المستحدثة. ويوازي هذه المرحلة، مرحلة النمو اللغوي، عند الطفل عندما يذهب إلى المدرسة، ويدرس العلوم والفنون.

وهذا المذهب على الرغم مما يبدو فيه من ثوب علمي، فإن فيه كذلك عيباً خطيراً، وهو أنه يتخذ الطفل أساساً، لتطبيق مراحل نمو اللغة عند الإنسان الأول، مع أن هناك فارقاً مهما بين لغة الطفل، ولغة هذا الإنسان الأول، ذلك

لأن الطفل يكتسب هذه اللغة من أبويه، والمحيطين به، وهم لا يملون من ترديد المقاطع التي يتفوه بها الطفل، ويصلحون له أخطاءه، حتى يصل إلى مرحلة النضج اللغوي، ولم يكن هذا أمراً متيسراً للإنسان الأول، الذي كان يسير على غير هدى في لغته، لا يجد أمامه من يردد مقاطعه وجمله، ليحاكيها ويصل بها إلى مراحل النضج والإحكام[١].

(١) المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص١٠٣ وما بعدها بتصرف.

نظريات علماء أصول الفقه عن نشوء اللغة

إن دراسة نشوء الدلالة اللغوية – دلالة اللفظ على المعنى – عند الأصوليين هي في واقعها دراسة لنشأة اللغة عند اللغويين، وذلك لأن نشأة اللغة تعني حدوث الألفاظ اللغوية المستخدمة بين الناس للدلالة على معانيها كوسيلة لتحقيق التفاهم وتبادل الأفكار[1]. وهم يدرسون في مباحث الدليل اللفظي ويريدون أن يشخصوا حقيقة الوضع بعد الإتفاق على أصل الإتجاه الموضوعي في تفسير العلاقة الحاصلة بين اللفظ والمعنى[2].

---

(١) دروس في أصول فقه الإمامية: د. عبد الهادي الفضلي، نشر مركز الغدير للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ج١، ص٣٤٥.

(٢) بحوث في علم الأصول: تقريرات السيد الشهيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر، بقلم السيد محمود الهاشمي، نشر مؤسسة

والحقيقة إن الذي أثار دراسة الوضع عند الأصوليين هو تأثرهم فيه بما انحدر إليهم عن طريق الفلسفة اليونانية، وهو هل دلالة اللفظ على المعنى ذاتية أو مجعولة. ولأن أكثر علماء الأصول ذهبوا الى أن الدلالة مجعولة وليست ذاتية، اختلفوا في نمط الجعل – جعل اللفظ دالاً على المعنى – :

هل هو على نحو التخصيص أو الإختصاص؟

والفرق بين الجعلين (التخصيص والإختصاص) هو بتوفر عنصر إرادة الجاعل وقصده إلى الجعل في مجال التخصيص وتصريحه به وتنصيصه عليه.

ففي التخصيص ينطلق الجاعل إلى وضع اللفظ المعين للمعنى المعين، وجعله له عن إرادة وقصد وتصريح منه بذلك. وفي ضوئه، تفهم دلالة اللفظ على المعنى من أول استعماله له فيه.

دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م: ج١، ص٧٢.

وفي الإختصاص يستعمل الجاعل اللفظ المعين في المعنى المعين من غير تصريح بالوضع، معتمداً على القرائن المصاحبة لإستعماله الموضحة لإرادته المعنى من اللفظ، وبعد شيوع الإستعمال بين الناس وأُلفهم له وأُنسهم به يحصل نحو اختصاص بين اللفظ والمعنى، فيصبح اللفظ يدل على المعنى بمجرد إطلاقه مستغنيـاً عن القرينة[1].

ففي كل لغة علاقات بين مجموعة من الألفاظ ومجموعة من المعاني، ويرتبط كل لفظ بمعنى خاص ارتباطا يجعلنا كلما تصورنا اللفظ انتقل ذهننا فوراً إلى تصور المعنى، فالإنسان العارف بالعربية متى تصور كلمة (الماء) مثلاً قفز إلى ذهنه فوراً إلى تصور ذلك السائل الخاص الذي نشربه في حياتنا الإعتيادية، وهذا الإقتران بين تصور اللفظ وتصور المعنى وانتقال الذهن من أحدهما إلى الآخر هو ما نطلق عليه إسم (الدلالة)، فحين نقول: (كلمة الماء تدل على

(١) دروس في اصول فقه الإمامية، مصدر سابق: ج١، ص٣٤٦ بتصرف.

السائل الخاص) نريد بذلك أن تصور كلمة الماء يؤدي إلى تصور ذلك السائل الخاص، ويسمى لفظا (دالاً) والمعنى (مدلولاً).

وعلى هذا الأساس نعرف أن العلاقة بين تصور اللفظ وتصور المعنى تشابه إلى درجة ما العلاقة التي نشاهدها في حياتنا الإعتيادية بين النار والحرارة أو بين طلوع الشمس والضوء، فكما أن النار تؤدي إلى الحرارة وطلوع الشمس يؤدي إلى الضوء، كذلك تصور اللفظ يؤدي إلى تصور المعنى، ولأجل هذا يمكن القول بأن تصور اللفظ سبب لتصور المعنى، كما تكون النار سبباً للحرارة وطلوع الشمس سبباً للضوء، غير أن علاقة السببية بين تصور اللفظ والمعنى مجالها الذهن، لأن تصور اللفظ والمعنى إنما يوجد في الذهن، وعلاقة السببية بين النار والحرارة أو بين طلوع الشمس والضوء مجالها العالم الخارجي.

والسؤال الأساسي بشأن هذه العلاقة التي توجد في اللغة

بين اللفظ والمعنى هو السؤال عن مصدر هذه العلاقة وكيفية تكونها، فكيف تكونت علاقة السببية بين اللفظ والمعنى؟ وكيف أصبح تصور اللفظ سبباً لتصور المعنى، مع أن اللفظ والمعنى شيئان مختلفان كل الإختلاف؟[1].

وقد وجدت عدّة إحتمالات وعدّة نظريات من أجل تفسير علاقة السببية هذه ومن أهمها:

النظرية الأولى: السببية الذاتية

يذهب اصحاب هذه النظرية الى وجود علاقة ذاتية بين اللفظ والمعنى، أي أن اللفظ بذاته يدل على المعنى، لا بجعل جاعل ولا بوضع واضع، حاله حال الإحساس

---

(١) دروس في علم الأصول: السيد الشهيد محمد باقر الصدر، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ج١، ص١١٩ وما بعدها.

بالحرارة عند وضع اليد في النار مثلاً"[1].

وهذا المذهب منقول عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة. فقد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع هذه اللفظة أو تلك بأزاء هذا المعنى أو ذاك، وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل عن معنى كلمة (إذغاغ) وهو بالفارسية الحجر، فقال: أجد فيه يُبْساً شديداً، وأراده الحجر"[2].

وقد أورد على هذا المذهب عدة إيرادات منها:

---

(١) الدروس: شرح الحلقة الثانية للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، ابحاث السيد كمال الحيدري، بقلم علاء السالم، نشر دار فراقد، قم، ط١، ١٣٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ج١، ص٢٦٥.

(٢) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها: العلّامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرح وضبط وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، نشر دار التراث، القاهرة، ط٣، ج١، ص٢٧.

١- يعجز اصحاب هذا الاتجاه عن تفسير الموقف تفسيرا شاملاً، لأن دلالة اللفظ على المعنى وعلاقته به إذا كانت ذاتية وغير نابعة من أي سبب خارجي، وكان اللفظ بطبيعته يدفع الذهن البشري إلى تصور معناه فلماذا يعجز غير العربي عن الإنتقال إلى تصور معنى كلمة (الماء) عند تصوره للكلمة، ولماذا يحتاج إلى تعلم اللغة العربية لكي ينتقل ذهنه إلى المعنى عند سماع الكلمة العربية وتصورها؟ إن هذا دليل على أن العلاقة التي تقوم في ذهننا بين تصور اللفظ والمعنى ليست نابعة من طبيعة اللفظ، بل من سبب آخر يتطلب الحصول عليه إلى تعلم اللغة، فالدلالة إذن ليست ذاتية[١].

٢- استحالة إستعمال المشترك في أحد معانيه ضرورة كون

---

(١) دروس في علم الأصول، مصدر سابق: ج١، ص١٢٠.

اللفظ علّة للمعنى الأول دون الثاني"[1].

٣- استحالة إستعمال المشترك في أحد معانيه ضرورة كون اللفظ علّة لمعنيين معاً"[2].

ولا شك في خطأ اصحاب هذه الإتجاه وعدم صلاحيته لتفسير ما نعيشه من دلالات لغوية ثبت عدم كونها ذاتية، لا لمجرد إختلاف الناس فيها، ليقال بأن مرد الدلالة الذاتية الى ميول لغوية غريزية وقد يختلف الناس في ميولهم وغرائزهم. بل لما تكشفه الملاحظة والتجربة لنا من عدم وجود أيّ ميل أصيل سابق على الإكتساب والتعلم للإنتقال من لفظ مخصوص الى معنى مخصوص"[3].

---

(١) و(٢) المقدمات والتنبيهات في شرح أصول الفقه: الشيخ محمود قانصو، نشر دار المؤرخ العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م: ج١: ص٦٢.

(٣) بحوث في علم الأصول، مصدر سابق: ج١، ص٧٢.

النظرية الثانية: نظرية الوضع والإعتبار

وملخص هذه النظرية: أن العلاقة بين اللفظ وبين المعنى ليست علاقة سببية حقيقية، وإنما هي ناشئة من الوضع الذي يمارسه الواضع الذي يعتبر هذا اللفظ لذاك المعنى، فيقول مثلاً: اعتبرت لفظ (ماء) المؤلف من الحروف الثلاثة (م، أ، ء) لهذا السائل المعروف المتصف بهذه الصفات المعروفة، أو من قبيل أنك تعتبر إسم (زيد) لهذا المولود الجديد، ففي البداية لا علاقة بين لفظ (الماء) وذاك (السائل) ولا بين لفظ (زيد) وهذا المولود الجديد، ولكن بعد إجراء عملية الوضع تلك ومعرفة الناس بذلك يتبادر الى أذهانهم ذلك السائل أو ذلك المولود عند سماع لفظ (ماء) أو لفظ (زيد). وعلى هذا الأساس يكون (الإعتبار) الذي مارسه الواضع هو الذي أوجد علاقة السببية بين تصور اللفظ وبين تصور المعنى[1].

---

(١) الدروس، مصدر سابق: ج١، ص٢٦٦.

وهناك اتجاهات ثلاثة في نظرية الاعتبار هي:

الأول: أن يضع الجاعل شيئًا ليكون علامة لشيء آخر في عالم الخارج، أي يضع لفظًا على معنى وهذا من قبيل، وضع علامات الفراسخ في الطرق، ليعرف المسافر كم قطع من المسافة، أو كما تجعل الإشارات الحمراء مثلاً على مواقع معينة لتكون علامة على الخطر. غاية الفرق أن الوضع هناك حقيقي يحدث في الأمور التكوينية، والإنتقال في عالم اللغة هو إعتباري، إذ لم يجعل اللفظ حقيقة على أمر خارجي – كما توضع الإشارة الحمراء على الموضع المعين – بل لا يعقل ذلك في اللفظ وإنما المعقول ادعاء وضعه عليه فيكون الجعل اعتباريًا[1].

---

(١) ينظر: بحوث في علم الأصول، للسيد محمود الهاشمي: ج١، ص٧٤ وما بعدها. وأنوار الأصول؛ لآية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، تقرير أحمد القدسي، نشر دار الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، قم، ط٣، ١٤٣٢هـ: ج١، ص٤٨.

الثاني: اعتبار اللفظ وجوداً تنزيليا للمعنى بوجوده الخارجي ومتحداً معه فتسري إليه آثاره التي منها تصوّره عند الإحساس به[١].

أي أن الواضع إنما يضع اللفظ كأداة لتفهيم المعنى، وذلك أن الإنسان قد يفهم المعنى من خلال الإحساس به، فقد يحس الإنسان بالحرارة من خلال وضع يده قرب النار، ومرة أخرى يسمع لفظ (حار) فيفهم المعنى المراد منه والذي هو ضدّ البرودة[٢].

الثالث: وهو الإتجاه القائل بإعتبار سببية اللفظ لتصور المعنى، وبتعبير آخر: إن الواضع ينزل اللفظ منزلة المعنى، وذلك من قبيل تنزيل (الطواف) منزلة (الصلاة)، فاللفظ ليس هو المعنى ولكن الواضع نزّله منزلة المعنى بوجوده

---

(١) بحوث في علم الأصول، للسيد محمود الهاشمي، مصدر سابق: ج١، ص٧٦.

(٢) الدروس، مصدر سابق: ج١، ص٢٦٧.

الخارجي، وبناءً على هذا تحصل علاقة السببية بين اللفظ وبين المعنى، ولكن هذه السببية سببية اعتبارية لا ذاتية كما كانت تدعي النظرية الأولى(١).

والحقيقة أن الموجود على نوعين: أحدهما: الموجود العيني، كالجواهر والأعراض، والآخر: الموجود الإعتباري. والوضع من النوع الثاني دون الأول، لوضوح أنه ليس من مقولة الجواهر ولا العرض، وعليه فلابد من تفسيره بالتنزيل، على أساس أن اللفظ مباين للمعنى ذاتـًا ووجوداً، وحينئذ فترتيب آثاره عليه التي منها إنتقال الذهن إليه عند الإحساس به بحاجة الى نوع اتحاد بين اللفظ والمعنى، بتنزيل وجود اللفظ وجوداً للمعنى بوجوده الخارجي، لكي يترتب عليه انتقال الذهن منه الى تصور المعنى عند تصوره، وبذلك تتحقق صفة الدلالة للفظ(٢).

---

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٧.

(٢) المباحث الأصولية: الشيخ محمد اسحاق الفياض، نشر مكتب الشيخ الفياض، قم، ط٢، ١٤٢٧هـ: ج١، ص١٢٧.

وهذه النظرية عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر صحيحة، ولكنه قدس سره يعتبر الإتجاهات الثلاثة السابقة المطروحة في هذه النظرية قاصرة عن تفسير وتبيين الكيفية التي حصلت من خلالها علاقة السببية الحقيقية بين اللفظ والمعنى، بعد عملية الوضع، فإن الإنسان وبمجرد أن يقول: اعتبرت هذا اللفظ سبباً لذلك المعنى كما في الإتجاه الثالث، أو ما يقارب هذا الإعتبار والقول كما في الاتجاهين الآخرين، لا يمكنه التفكيك بينهما بعد ذلك. وبعبارة أخرى: إن (الإعتبار) أمر ذهني و (السببية) أمر واقعي وحقيقي، ولا يمكن أن يوجد ناراً في الخارج بمجرد أن يقول: اعتبرت وجود نار في الخارج؟ ومن ثم لابد أن نفكر في تفسير آخر نطلق فيه من أمر تكويني حقيقي لا اعتباري لإثبات علاقة السببية الحقيقية الواقعية بين اللفظ والمعنى[1].

---

(١) الدروس، مصدر سابق: ج١، ص٢٦٧.

النظرية الثالثة: نظرية التعهد

وتتلخص هذه النظرية: في أن الوضع ليس اعتباراً وإنما هو تعهّد من قبل الواضع بأن لا يتلفظ بالكلمة إلّا إذا كان يريد افهام المعنى الخاص الذي يحاول ربطه بها. وهذا التعهد يؤدي إلى أننا متى ما سمعناه ينطق بتلك الكلمة انتقل ذهننا إلى تصور ذلك المعنى وعرفنا أن المتكلم أراد تفهيمه لنا، وهذا معنى قيام السببية بين اللفظ والمعنى[1].

وأهم مميزات هذه النظرية:

١- ان العلقة الوضعية على أساس هذه النظرية مختصة بما إذا قصد المتكلم باللفظ تفهيم المعنى، ونتيجة ذلك اختصاص الدلالة الوضعية بالتصديقية.

٢- ان الوضع على ضوء هذه النظرية أمر تكويني نفساني، وهو التعهد والإلتزام في أفق النفس، وحيث إنه فعل

---

(١) بحوث في علم الأصول، مصدر سابق: ج١، ص٧٨.

اختياري للنفس فلابد أن يتعلق بفعل اختياري، وهو التلفظ بلفظ خاص عند إرادة تفهيم معناه، حتى يدل على أنه أرادة منه.

٣- أن القضية المتعهد بها قضية شرطية، مقدمها التلفظ بلفظ خاص، وتاليها إرادة إفهام معنى مخصوص، ونتيجة ذلك هي أنه لا داعي وراء التلفظ بهذا اللفظ الخاص، إلّا قصد إفهام ذاك المعنى المخصوص.

٤- ان كل مستعمل واضع حقيقة على أساس هذه النظرية، بإعتبار أنه متعهد بأنه لا ينطق باللفظ إلّا عند ارادة تفهيم معناه الخاص، والغرض أن حقيقة الوضع هي التعهد، وتعهد كل شخص قائم بنفسه، وهو مسؤول عنه لا عن تعهدات الآخرين[١].

ولتوضيح المطلب أكثر: يرشد الى حقيقة التعهد والإلتزام الغرض الباعث على الوضع، بل الرجوع إلى

(١) المباحث الأصولية، مصدر سابق: ج١، ص١٣٥.

الوجدان والتأمل فيه أقوى شاهد عليه، وبيان ذلك: أنّ الانسان بما أ نه مدني بالطبع يحتاج في تنظيم حياته المادية والمعنوية، إلى آلات يبرز بها مقاصده وأغراضه ويتفاهم بها وقت الحاجة، ولمّا لم يمكن أن تكون تلك الآلة الإشارة أو نحوها لعدم وفائها بالمحسوسات فضلاً عن المعقولات، فلا محالة تكون هي الألفاظ التي يستعملها في إبراز مراداته من المحسوسات والمعقولات، وهي وافية بهما، ومن هنا خصّ تبارك وتعالى الإنسان بنعمة البيان بقوله عزّ من قائل: (خَلَقَ الأنسَانَ * عَلَّمَهُ ا لْبَيَانَ) سورة الرحمن: ٣-٤. ومن هنا - أيَ من أن الغرض منه قصد التفهيم وإبراز المقاصد بها - ظهر أن حقيقة الوضع هي التعهد والتباني النفساني، فإن قصد التفهيم لازم ذاتي للوضع بمعنى التعهد. وإن شئت قلت: إنّ العلقة الوضعية حينئذ تختص بصورة إرادة تفهيم المعنى لا مطلقاً، وعليه يترتب اختصاص الدلالة الوضعية بالدلالة التصديقية.

وعلى ذلك فنقول: قد تبين أن حقيقة الوضع عبارة عن

التعهد بإبراز المعنى الذي تعلق قصد المتكلم بتفهيمه بلفظ مخصوص، فكل واحد من أهل أية لغة متعهد في نفسه متى ما أراد تفهيم معنى خاص، أن يجعل مبرزه لفظاً مخصوصاً. مثلاً التزم كل واحد من أفراد الأمّة العربية بأنّه متى ما قصد تفهيم جسم سيّال بارد بالطبع أن يجعل مبرزه لفظ (الماء) ومتى قصد تفهيم معنى آخر أن يجعل مبرزه لفظاً آخر، وهكذا.

فهذا التعهد والتباني النفساني بإبراز معنى خاص بلفظ مخصوص عند تعلق القصد بتفهيمه، ثابت في أذهان أهل كل لغة بالإضافة إلى ألفاظها ومعانيها بنحو القوّة، ومتعلق هذا التعهد أمر اختياري وهو التكلم بلفظ مخصوص عند قصد تفهيم معنى خاص[1].

---

(١) محاضرات في أصول الفقه: تقريراً لأبحاث آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (١٣١٧-١٤١٣هـ) بقلم آية الله العظمى الشيخ محمد اسحاق الفياض، نشر مؤسسة الخوئي الاسلامية، ط٤، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ج١، ص٤٩.

وقد اشكل السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره على هذه النظرية بما يلي:

١- ان ظاهر هذا المسلك أن التعهد يأتي باللفظ كلما أراد المعنى الموضوع له، وهذا يعني أن المتعهد قد إلتزم ضمناً بأن لا يأتي باللفظ حين يريد المعنى المجازي له وحينئذ لا يحق له أن يستعمل اللفظ في معناه المجازي، وهذا خلاف ما نجده بالوجدان بأننا نستعمل الكثير من الألفاظ ونريد بها معانيها المجازية.

٢- ان وجود اللغة يرافق الإنسان منذ طفولته، وليست اللغة ظاهرة متأخرة في حياته، وما يذكره صاحب نظرية التعهد يقتضي استدلالاً منطقياً ينتقل فيه السامع من أحد طرفي الملازمة الى الطرف الآخر، والاستدلال المنطقي أمر يوجد في مراحل متأخرة من حياة الإنسان وفي الفترة التي ينضج فيها فكره الإستدلالي، فكيف يمكن أن تكون اللغة قد وجدت على أساس هذا الإستدلال وهذه الملازمة

العقلية؟ بل إنّ وجود اللغة في حياة الإنسان ومنذ مراحل طفولته الأولى دليل على أنها ظاهرة بسيطة وليست كما يدّعيه اصحاب مسلك التعهد[1].

النظرية الرابعة: نظرية القرن الأكيد

وهذه النظرية تبناها السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، وذلك أن تشخيص حقيقة الوضع أن يقال: بأن الله سبحانه وتعالى قد جعل من الإحساس بالشيء سبباً في إنتقال الذهن الى صورته، فالإنتقال الذهني الى شيء استجابة طبيعية للإحساس به. فلو وضع الإنسان يده على جسم حار فإنه يحس بحرارته، وهذا الإحساس ينتقل الى ذهنه ويتحول الى صورة ذهنية، وهذا هو المعنى الذي نتحدث عنه، واللفظ—ولنفترضه لفظ (الحار) أو (الحرارة)-

---

(١) ينظر: الدروس، مصدر سابق: ج١، ص٢٧٠. وبحوث في علم الأصول: ج١، ص٧٩ وما بعدها.

إنما وضع لهذا المعنى الذي جاء من الإحساس بالخارج. وهذا قانون تكويني يحكم الذهن البشري، ويوجد قانونان تكوينيان آخران ثانويان يوسعان من دائرة تلك الاستجابة الذهنية.

أحدهما: قانون انتقال صورة الشيء إلى الذهن عن الطريق إدراك مشابهه، كإنتقال صورة الحيوان المفترس إلى الذهن بسبب رؤية رسم مشابه له على الورق. أي أن الإنسان قد لا يحس بالشيء بوجوده الخارجي، وإنّما من خلال صورته، كأن يرى النار المرسومة على ورقة – مثلاً – وفي هذه الحالة فإنه لن يحس بها ولا بحرارتها، ومع ذلك ينتقل ذهنه الى المعنى الذي عنده عن النار، وهذا ما يعبر عنه بقدرة الإنتقال من (المشابه الى المشابه) كأن ينتقل من الوجود الكتبي (الصورة) الى الوجود الخارجي.

ثانيهما: قانون إنتقال صورة الشيء إلى الذهن عن طريق إدراك الذهن لما وجده مشروطا ومقترناً بذلك الشيء على

نحو أكيد بليغ فيصبح هذا القرين في حكم قرينه من حيث إيجاد نفس الأثر والإستجابة الذهنية التي كان يحدثها عن الذهن عند الإحساس به.

وبعبارة أخرى: أن الشيء إذا اقترن أو ارتبط بشيء آخر ارتباطاً خاصاً ثم انتقل هذا الإرتباط الى الذهن البشري، فإن الإنسان وبمجرد أن يتصور أحد هذين الشيئين ينتقل ذهنه الى الشيء الآخر، فلو ذهب مثلاً الى بلد معين وأصيب هناك بحمّى شديدة جداً، فإنه يبقى دائماً حينما يتذكر ذلك البلد يتذكر الحمى التي أصابته فيه مع أن (الحمى) أجنبية عن (البلد)، ولكن حيث اقترن أحد هذين الشيئين (البلد) اقترانا خاصاً وأكيداً بالشيء الآخر (الحمى) فإن ذهن الإنسان ينتقل بمجرد تذكر أحدهما الى الآخر.

ما ينبغي التنبيه عليه هنا، هو أنّه لابد من وجود ربط خاص وقرن أكيد بين الشيئين لا كل ربط، فقد يمر الإنسان أثناء سفره بالعديد من المناطق، ولكنه لا يتذكر بعد ذلك من

هذه المناطق إلّا المنطقة التي أصابته فيها الحمّى الشديدة والتي حصل فيها ربط خاص وأكيد بينها وبين مرضه ذاك.

وخلاصة القوانين السابقة التي ذكرناها هي أن ذهن الإنسان:

١- في القانون الأول ينتقل من الخارج إلى الصورة الذهنية.

٢- وفي القانون الثاني ينتقل من المشابه إلى المشابه.

٣- وفي القانون الثالث ينتقل من الشيء الأجنبي إلى الشيء الأجنبي إذا كان بينهما ربط وقرن أكيد.

واعتماداً على ما ذكر يمكن أن نبين نظرية السيّد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره في تفسير علاقة السببية بين اللفظ والمعنى، فإنه قدس سره وإن قبل بنظرية (الإعتبار) إلّا أنه يذهب إلى أن الاعتبار ليس هو الموجد لعلاقة السببية تلك، وإنما الموجد لها هو القانون التكويني الثالث الذي

يحكم الذهن البشري، أي قدرة ذهن الإنسان على الانتقال من خلال تصور شيء أجنبي إلى تصور شيء أجنبي آخر إذا كان هناك قرن وإرتباط أكيد وخاص بينهما، وكان هذا الارتباط قد انتقل إلى ذهن الإنسان[1].

ومن هنا يكون دور الاعتبار هو دور الموجد للربط

---

(١) يعرف هذا القانون في العلوم الطبيعية بـ (نظرية بافلوف في المنبهات الشرطية) حيث قام هذا العالم الروسي بتجربة على كلب ملخصها: أنه كلما قدّم لذلك الكلب طعاماً قرن ذلك بدق الجرس. وقد كرر هذه العملية عدّة مرات – لتحصل حالة الربط الخاص بين تقديم الطعام ودق الجرس – فوجد بعد ذلك أنه كلما دق الجرس سال لعاب ذلك الكلب ولو لم يقدم له الطعام، وما ذلك إلّا محصول عملية (الإقتران الشرطي) في ذهن الكلب بين الجرس وبين الطعام، فبمجرد سماع الكلب لصوت الجرس ينتقل ذهنه الى الطعام فيسيل لعابه. وبناءً على هذه النظرية استنتج أنه إذا اقترن شيء بشيء آخر إقتراناً خاصاً، فإن هذا الاقتران يكون سبباً واقعياً لانتقال الذهن حين تصوّره لأحدهما الى تصور الشيء الآخر. (الدروس، ج١، ص٢٧٢)..

الخاص والقرن الأكيد بين اللفظ والمعنى، وذلك لأن الربط بين الأمور الخارجية لا يأتي جزافاً، وبعد أن يوجد هذا الربط الخاص والأكيد يفعل ذلك القانون التكويني فعله، فيكون هو الموجب للسببية الواقعية بين ذينك الأمرين الأجنبيين (اللفظ والمعنى)[1].

---

(١) ينظر: بحوث في علم الأصول، للسيد محمود الهاشمي: ج١، ص٨١. والدروس: شرح الحلقة الثانية للسيد كمال الحيدري: ج١، ص٢٧١ وما بعدها. ودروس في علم الأصول، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: ج١، ص١٢٢ وما بعدها.

من الواضع للغة؟

يثار سؤال هل يجب وجود واضع لكل لغة، وحين يجاب بالوجوب من هو الواضع؟ وهذا فيه قولان:

أحدهما: القول بإلهية الواضع، وقد إختار هذا القول جملة من العلماء الأصوليين منهم المحقق النائيني[1].

ثانيهما: القول ببشرية الواضع، وهذا القول هو المشهور بين الأصوليين.

كيف وجد آدم؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال، هناك أمر مهم بحاجة الى التوضيح والوقوف عليه، وهو هل أن آدم أبو الإنسانية والذي ذكر في القرآن الكريم، وجد نتيجة تسلسل وتطور سلالات

---

(١) ينظر: أجود التقريرات: تقرير بحث النائيني، للسيد الخوئي، نشر دار منشورات مصطفوي، قم، ط٢، ١٣٦٨هـ: ج١، ص١١.

سبقته بملايين السنين، أم أنه وجد وجوداً دفعيًا مباشراً، حتى بلا أب وأم؟.

والحقيقة هناك رأيان حول آدم في وجوده الأرضي وبدء حياته في هذه الدنيا، ومسألة اللغة ومن هو الواضع لها ومن ثم تطورها، لا يمكن الوصول الى جواب حاسم حولها من دون تحديد أحد هذين الرأيين، وذلك لأن لكل رأي مباني واستدلالات التي تناسبه، دون الرأي الآخر. وإن لم نستطع تحديد آدم في وجوده الدنيوي، ستبقى المسألة معلقة، ولن يمكننا طرح الحل الأمثل. والرأيان هما:

الأول: ان الإنسان عمره أكثر من (٢) مليون سنة، وقد مر بمراحل عديدة حتى وصل الى مرحلة الوعي واستخدام اللغة.

الثاني: هناك مرحلة من مراحل البشرية قد بدأت بآدم العاقل الذي يقارب عمره (١٠,٠٠٠) سنة تقريبًا.

والأول هو رأي علماء الأركيولوجيا، وما تشير إليه

احفورياتهم، وأما الثاني فهو رأي يعتمد على النص الديني، بإعتبار أن الله تعالى قد ذكر لنا إنساناً إسمه آدم وقد حمل مقومات الإنسان الكامل الذي يعي مسؤوليته في هذا الوجود، تلك مسؤولية الإستخلاف وخطورتها التي تدار من خلالها أمور العالم الأرضي، وفق نظام دقيق لا يمكن أن يعوضه شيء آخر. وما دام الأمر كذلك فالقضية إذن قد أنيطت بآدم أبو البشرية، هذا الذي خلقه الله تعالى بأحسن تقويم، والذي لا يمكن أن يكون سليلاً لفصائل أخرى أمتدت ملايين السنين، وقد يكون جده الأعلى قرداً من القرود!.

والحقيقة الأمر هنا يحتاج الى تأني وشيء من التفصيل، لكي تتضح الصورة، أو نحاول أن نعقد صلحاً بين الرأيين، فنحن هنا لا نكذب أي طرف منهما، خصوصاً إذا ما نهض الدليل العلمي ببراهينه، وحينئذ لا يوجد أي تعارض بين الحقائق العلمية الثابتة والدين، ولكن كل ما هنالك نحتاج الى التوافق في المسألة حتى لا نصطدم بالتعارض، فنقول:

نحن لا ننكر وجود مخلوقات سبقت أبانا آدم عليه السلام قد تشبهه بالمظهر الخارجي، وقد مرت بمراحل طويلة من الزمن، وهي تتغير وتتبدل بالإنقراض أو بغيره. ويظهر نتيجة ذلك أنواع وسلالات متعددة من البشر. وهذا الذي يجدونه الآن من الهياكل أو الجماجم البشرية الدالة على عمقها الزمني الذي يصل في بعضها الى ملايين السنين، لهو خير شاهد على هذا الأمر.

وهذه المسألة يدعمها العلم من جهة، ومن جهة أخرى الدين، فقد وردت عدة اشارات حول هذا الأمر منها ما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...) سورة البقرة: ٣٠، فقد جاء في تفسير استغراب وتعجب الملائكة، على أن لديهم علماً مسبقاً بهذا الإفساد وسفك الدماء، بسبب الأقوام التي سبقت آدم عليه السلام في الخلق، حيث أنهم لم يكونوا صالحين، فقد جاء في تفسير العياشي: عن هشام بن سالم قال أبو عبد الله عليه السلام: وما علم

الملائكة بقولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء[1].

ويقول صاحب تفسير الفرقان: هذه السابقة السيئة التي رأوها ممن سلف من الخليقة الأرضية هي التي استجاشتهم حتى سألوا، معترضين على الخليقة الأرضية: (أتجعل...) تكراراً لما سلف من إفساد وسفك، وما هي الحكمة إلّا مزيد الصلاح والعبادة (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) وهم لا يسبحون ولا يقدسونك!... وقد عاش قبل هذا الإنسان نسل وأنسال ترابية عاقلة مكلفة لا نعرفها، عرفتها الملائكة من ذي قبل، فضاقت بها ذرعاً ففرحت بانقراضها، فرحة العبد لمولاه، إذ يجده يعبد ولا يعصى، ثم تضايقت من جعل

---

(١) تفسير العياشي: محمد بن مسعود ابن عباس السلمي السمرقندي المعروف بـ (العياشي)، تصحيح وتعليق العلامة السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م: ج١، ص٤٧.

خليفة لها، دون ان تحسب حساباً لخلفيات سؤالها فجهّلهم الله: (إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ)(١).

وجاء في الخصال عن أبي جعفر عليه السلام: لقد خلق الله عزّ وجلّ في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم. خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه، ثم خلق الله عزّ وجلّ آدم أبا هذا البشر وخلق ذريته منه...)(٢).

وجاء في كتاب التوحيد للصدوق عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل جاء في آخره: ولعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد؟ أو ترى أن الله لم يخلق بشراً

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م: ج١، ص٢٨٦و٢٨٧.

(٢) الخصال: الشيخ الجليل أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، نشر دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م: ج١، ص٣٨٢.

غيركم؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم واولئك الآدميين.

أما في علوم الأركيولوجيا:

فإنه لا يعلم على وجه اليقين متى بالتحديد ظهر أول إنسان، لأن التغيرات تحدث دائما عبر عملية التطور، كما هو الحال في صعوبة تحديد بداية للكون ولأصل الحياة. وتشير الأحفورات الى أنه قبل نحو (٣٥) مليون عام ظهر أوائل الأسلاف الحقيقيين المشتركين للإنسان وللقردة، أي الرئيسيات العليا التي انعزلت في القارة الأفريقية، حين كانت كلها عبارة عن جزيرة، وتشير الدراسات الجيولوجية، أنه نحو (١٧) مليون عام التقت الصفيحة الأفريقية العربية بالصفيحة الأوروبية الآسيوية، مما شكّل جسراً بريّاً بين تلك القارات، سمح من خلاله للكائنات الحية أن تنتقل فيما

بينها[1].

وقبل نحو (٥) مليون عام ظهر انسان Ramapithecus Punjabicus وكان يمشي على قدمين، ولكنه منحني، فالبعثات العلمية عثرت في شرق أفريقيا على (٢٥٠٠٠) أحفور منها (٢٠٠٠) عظم بشري، معظمها يعود الى نحو (٣) ملايين عام. ولعل أشهرها عظام الجدّة (لوسي). ومن خلال تلك الأحفوريات، أجزم العلماء أن الإنسان ولد بداية في أفريقيا، وبالذات في شرقها شمال خط الاستواء[2].

وقد ظهر جنس الإنسان الـ (هومر Homo) في حدود (2.7) مليون سنة قبل الآن وكانت أنواعه الأولى هي

---

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين: د. جومانه الحويك ناصيف، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٥م-١٤٣٦هـ: ص٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥١، نقلاً عن كتاب تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، ص٥٦.

(الماهر، رود ولفن، الجورجي، إرجاستر) تميل الى انتصاب القامة، لكنها ما زالت منحنية لكن نوع (الماهر) كان حاسماً في درجته التطورية، أما النوع البشري الحاسم في انتصاب القامة فهو المنتصب (إيركتوس) الذي ظهر في حدود (108) مليون سنة قبل الآن وكانت منه عشرة أنواع فرعية في مختلف أنحاء العالم ووصل حجم دماغه الى كيلو غرام مكعب (1000سم3). وأمّا النوع الحاسم الثالث فقد كان هو الإنسان العاقل المبكر الذي شكل سلالة متواصلة مع العاقل الأثري (الكرومانيون) وصولاً الى العاقل الحديث. وبين هذه الأنواع الحاسمة الثلاثة ظهرت أنواع كثيرة انقرضت كلها[1].

والإنسان العاقل الأول هومو سابينس Homo Sapiens نوع منقرض شبّه الإنسان، عاش في افريقيا قبل

---

(١) تاريخ الخليقة: د. خزعل الماجدي، نشر دار تكوين، بيروت، ط٢، ٢٠١٨: ص٣٣١.

(١٦٠) ألف سنة، ويقصد من إسمه أنه الإنسان العاقل البكر أو إنسان عاقل، عثر على بقاياه في اثيوبيا عام ١٩٩٧ لكن لم يكشف عنها حتى ٢٠٠٣ وبإستخدام التقنية الإشعاعية لتحديد العمر، وقد قدّر عمره ما بين (١٥٤و١٦٠) ألف سنة، ويطلق دارسو الأنثروبولوجيا على الإنسان الحديث نوع الإنسان العاقل ... ويعرف عنه أنه يمتلك جسماً منتصباً ذا أطراف مفصلية علوية وسفلية يسهل تحريكها، وتعمل بالتناسق التام مع الدماغ، وهي خاصية تجعل من الإنسان المخلوق الوحيد على البسيطة الذي يستطيع توظيف قدراته العقلية والجسمية لصناعة الأدوات الدقيقة التي يحتاجها[١].

وعندما خطى أول مخلوق يمكن أن نسميه بالإنسان على الأرض، كان عبارة عن مجرد مخلوق أرقى بسيطا من

---

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين، مصدر سابق: ص٦٤ نقلاً عن فراس السواح، دين الإنسان ص١١٢.

القرود. وكان ممكنا بالنسبة له أن يمشي وأن يجري واقفا وأن يتصل مع زملائه بطريقة فطرية وأن يستعمل يده في تشكيل أدواته الأولية. كما أنه كان يتصف باحساس قبلي قوي، أي أنه كان مازال حيوانا فظاً جميلاً. وقد جرى في جماعات للصيد وكان ألطف بقليل عن معظم الحيوانات الأخرى، فبعض علماء الأجناس يميلون الى الإعتقاد بأن إختلاف المناخ الذي سبق العصر الجليدي من البلايو ستوسيني والعصر الثلجي الكبير نفسه، قد وفّرا أرضاً للتدريب شكّلت تطور الإنسان، وما يترتب على ذلك من إدراك إنساني. وعندما واجهته الظروف المعيشية القاسية ايقظت فيه كل مصادر المقاومة وأصبح الإنسان مدفوعاً إما الى التطور أو الموت، وقد تطور بدلاً من أن يموت. ولكن هل من الضروري وجود بيئة مثل التي كانت في العصر البلايو ستوسيني حتى يكتمل تطور الذكاء؟ وهل خوف المخلوق من الطبيعة يؤدي الى ذكاء تام؟ وإذا كان هذا الحال، فكم من الكوكب لم يتطور فيها الذكاء بسبب عدم

وجود ضرورة، وإمّا الى التطور أو الموت؟ وهل يمكن أن يكون تتابع حوادث غير فرضية ضروريا لتطور الذكاء في أي مكان؟ كل تلك التساؤلات وغيرها طرحها ويطرحها الإنسان لمعرفة من أي فروع الإنسان الأولى قد انحدر[١].

وأما حول اصول الإنسان، فقد تعددت النظريات، لفقدان روابطنا التاريخية بأسلافنا، فالتعرف على حقيقة أصلنا هي مسألة ذات أهمية كبرى أنها جوهر هويتنا ومصيرنا، ورغم الكم الهائل من الإكتشافات الأثرية المثيرة، التي يمكن الاعتماد عليها في بناء قصة كاملة متكاملة حول أصول الإنسان، لازالت نظرية القرن التاسع عشر حول التطور والإرتقاء تدرّس للأجيال الناشئة[٢].

وفي هذا الشأن يقول عالم الأنثروبولوجيا الشهير: ريتشارد ليكي: قمنا بجمع في غرفة واحدة كل المستحثات

---

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين، مصدر سابق: ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٥.

وجود ضرورة، وإمّا الى التطور أو الموت؟ وهل يمكن أن يكون تتابع حوادث غير فرضية ضروريا لتطور الذكاء في أي مكان؟ كل تلك التساؤلات وغيرها طرحها ويطرحها الإنسان لمعرفة من أي فروع الإنسان الأولى قد انحدر[1].

وأما حول اصول الإنسان، فقد تعددت النظريات، لفقدان روابطنا التاريخية بأسلافنا، فالتعرف على حقيقة أصلنا هي مسألة ذات أهمية كبرى أنها جوهر هويتنا ومصيرنا، ورغم الكم الهائل من الإكتشافات الأثرية المثيرة، التي يمكن الاعتماد عليها في بناء قصة كاملة متكاملة حول أصول الإنسان، لازالت نظرية القرن التاسع عشر حول التطور والإرتقاء تدرّس للأجيال الناشئة[2].

وفي هذا الشأن يقول عالم الأنثروبولوجيا الشهير: ريتشارد ليكي: قمنا بجمع في غرفة واحدة كل المستحثات

---

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين، مصدر سابق: ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٥.

والبقايا المتحجرة التي تم اكتشافها حتى الآن حول أسلافنا الذين عاشوا في الماضي البعيد، معظمها شبه بشرية، وهي عبارة عن كسرات من الأسنان وأجزاء من الجماجم. لكن وكما يقول ستيفن غولد: أنها لا تخدم ولا يمكن استخدامها كقاعدة تنطلق منها كمية لا متناهية من التخمينات والافتراضات والحكايا الخيالية[1].

كما أعلن ريتشارد ليكي عن اكتشافه لبقايا جمجمة يرجع تاريخها الى مليونين ونصف مليون عام، يعد أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول. وحينها قال: (إن هذه الإكتشاف يمتد في قدمه مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى الآن، وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة، مع عظام لساق بشرية ترجع الى نفس الحقبة من التاريخ، في جبل حجري، بصحراء تقع شرق بحيرة رودلف في كينيا)، ثم

(١) المصدر نفسه: ص٦٨، نقلاً عن فراس السواح، دين الإنسان ص٢٠٠.

قال: (إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ، وكيف؟ ومتى؟).

وقد قدّم تقريراً عن اكتشافه الى الجمعية الجغرافية في واشنطن، قال فيه: (إن نظريات التطور الحالية – وعلى رأسها نظرية داروين – تفيد أن الإنسان تطور من مخلوق بدائي، كانت له سمات بدنية شبيهة بسمات القرد، وإن أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتصب يسير على رجلين، وله مخ كبير، يرجع الى نحو مليون سنة). هذا في حين أن الكشف الجديد يدل على أن المخلوق الإنساني المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد، بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف عام، وإنه يمكن على هذا الاعتبار استبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته.

وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليق لها على هذا الكلام: (أن نظرية ليكي تقوم على أساس أن المخلوق

البدائي الأول وأسمه العلمي "أوسترالو بثيكوس" وكان أساساً من أكلة النباتات، قد وصل الى مرحلة تطويرية مسدودة، بينما استطاع الإنسان الذي استخدم اللحم في غذائه، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية، أن يبقى على قيد الحياة).

وأكد ليكي في تقريره: (أنه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشري المعروف حالياً، إلّا أنها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التي عثر عليها للإنسان الأول، وبذلك لا تتفق مع أي نظريات حالية عن تطور الإنسان).

وواضح إذن أن الفرق الزمني هائل بين هذا الرأي، وما تقوله نظرية داروين. كما أن الفرق هائل أيضاً في جوهر التصور للإنسان الأول بين النظريتين، فهو عند داروين يمشي على أربع منذ مليون سنة، ثم انتصبت قامته، وعند ليكي

يمشي منتصب القامة منذ ملونين ونصف المليون من السنين، وأنه كذلك منذ كان.

ويقول صاحب كتاب (نظرية داروين بين التأييد والمعارضة): وقد أذاع البروفيسور جوهانس هورذلر - العالم الذري في سمنتبال بسويسرا - بيانًا في مارس ١٩٥٦. وقد عارض نظرية داروين بشدة وقال: (إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالة القرد، وإن التجارب الواسعة التي أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً، وبعيداً جداً). وأضاف الى ذلك: (أن الهياكل التي درس عليها تؤكد نظريته، وقد قدم البروفيسور المذكور للمتحف الطبيعي بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها الى عشرة ملايين سنة، وهذا هو التاريخ الذي أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية)[1].

---

(١) أبي آدم: د. عبد الصبور شاهين: نشر دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠١٧: ص٤٧.

وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن في أمريكا أن الدكتور (رويتر) المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا، قد أيد البروفيسور هورذلر في وجهة نظره، واعتبرت نظرية داروين بذلك رأياً لا يستند الى أي دليل علمي، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع، استقلالاً تاماً، فمنها الإنسان الذي يمشي على رجليه، ومنها الدواب التي تمشي على أربع، ومنها الزواحف التي تمشي على بطونها[1].

علماً إن النياندرتال الكلاسيكي الذي عرفته أوروبا خلال الباليوليت الأوسط، هو غصن منقطع من شجرة التاريخ الطبيعي للإنسان، وقد انقرض بعد أن بدأت طلائع الإنسان العاقل تفد من مناطق المشرق العربي، وهي طلائع تطورت عن النياندرتال المشرقي. فهياكل النياندرتال التي تم اكتشافها في فلسطين بشكل خاص، تظهر مرحلة وسطى نحو هيئة الإنسان العاقل، وحالة إنسلاخ كان يقوم بها النياندرتال

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٨.

هنا، عن الهيئة النموذجية المعروفة في أوروبا. وإن عظام أطراف الهياكل التي اكتشفت في مغارة السخول، على سبيل المثال، تبدي شبهاً كبيراً جداً بعظام أطراف الإنسان العاقل، وكذلك عظم الفك الأسفل والجزء الخلفي من الجمجمة. ويبلغ الشبه درجة يعتقد علماء الأنثروبولوجيا معها. بأن هذه القطع لو اكتشفت مستقلة عن بقية هياكلها، لكان من الصعب التعرف عليها كأجزاء من هياكل نياندرتالية. وهكذا يبدو ظهور الإنسان العاقل في الشرق الأدنى، كنتيجة واضحة لتطور محلي، أما في أوروبا فقد ظهر الإنسان العاقل دفعة واحدة مع أدواته الجديدة التي كانت شائعة في الشرق الأدنى، منذ زمن بعيد، الأمر الذي يدل على وصوله مع ثقافته المكتملة من المشرق، عن طريق البلقان فأوروبا الوسطى، حيث عثر على دلائل تشير الى مثل هذا الإرتحال[1].

---

(١) دين الإنسان: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٨، ٢٠١٧م: ص١٥١. نقلاً عن

Grahame clark, op. cit, pp.65,70 - 71

أما أبرز أسلاف الإنسان من الأكثر قدمـًا الى الإنسان الذي سبقنا مباشرة الهومرسابيان حسب أحدث الدراسات تبدأ بإنسان:

١ - الأوريوبتيك: اكتشفه عمال المناجم في شمال روما، قدّر عمره بين (١٢) و(١٥) مليون سنة. كان يمشي مستقيمـًا، وله فك به اسنان بشرية. سعة جمجمته أكبر بقليل من القرود مقارنة مع الإنسان الإنسان.

٢- الإنسان الاسترالي: أهم نموذج له اكتشف عام ١٩٥٩ في جنوب بحيرة فكتوريا تنزانيا، وسعة جمجمته (٥٠٠ الى ٦٠٠سم) استخدم أدوات بدائية وعمر لا يقل عن (٦٠٠) ألف سنة.

٣- إنسان البيثكانثرو بوس: اكتشف في جزيرة جاوه، ومنه إنسان الصين الذي اكتشفه تيارده شاردن بالقرب من بكين وسعة جمجمته تبلغ (١٠٠٠سم) وكان يستخدم النار.

٤- إنسان نياندرتال: وسعة قحفة جمجمته نحو (١٤٥٠سم)، وكان هذا الإنسان يواري موتاه في التراب، ويتحدث بالكلام المفهوم.

٥- الإنسان العاقل: هو الإنسان الذي سبقنا مباشرة وتبلغ سعة قحف جمجمته (١٥٠٠سم) وهو يقترب من سعة جمجمة الإنسان المعاصر[1].

وقد يطرح تساؤل: كيف يستطيع العلماء أن يؤكدوا أن هذه الحفرية هي حفرية انسان لا حفرية قرد مثلاً؟

والجواب: هو أن حفريات الإنسان يجب أن يتوفر فيها أحد هذه الأدلة أو بعضها:

١- أن نجد في المنطقة نفسها أي أثر للذكاء كوجود آلة، لأن

---

(١) الوجود الإنساني، مصدر سابق، ص٧٤، نقلاً عن الإنسان والكون والتطور بين العلم والدين، هنري بولاد اليسوعي، ص١١٣.

الإنسان يتميز عن الحيوان بالذكاء ووجود الآلة دليل قاطع على الذكاء بشرط أن تكون مصنّعة.

٢- حين تطور الإنسان اكتشف النار واستخدمها في حياته اليومية. لذلك نستطيع أن نقول بأن وجود أي أثر يشير الى استخدام النار يمكن أن يكون دليلاً قاطعًا على وجود إنسان في هذه المنطقة في وقت ما.

٣- أنها ظاهرة أتت في مرحلة لاحقة، وهي دفن الجثة تحت الأرض، فلا يوجد أي حيوان يدفن جثث موتاه تحت الأرض إلّا الإنسان[1].

(١) المصدر نفسه، ص٥٢.

إنقراض بشري وآدم جديد

وبعد أن يطمئن العقل على وجود البشر قبل أبينا آدم من خلال وجود النص الديني ومعطيات علماء الاركيولوجيا والأنثروبولوجيا، حدث إختلاف وتباين في الآراء حول وجود آدم عليه السلام، وهل كان وجوده دفعياً، بلا أب يسبقه ولا أم تحتضنه، بعد أن انقرض البشر الذين وجدوا قبله؟ أم كان وجوده نتيجة الإستمرار في تطور تدريجي أستمر لملايين السنين، حتى وصل الى طور النضج الإنساني، وصورته المكتملة بآدم؟ ثم أن أصحاب الرأي القائل بأن آدم لم يكن أصلاً نوعياً، وإنما هو تطور عن خلق سبقوه، أيضاً إنقسموا الى رأيين:

الأول: هم اتباع ومناصري النظرية الداروينية، من أن أصل الإنسان هو القرد، واحتاج الى ملايين السنين الى أن وصل الى مرحلة الآدمية من خلال الإنتخاب الطبيعي. بالرغم من أن الظهور المفاجئ لأشكال الحياة يضاد ركناً

أساسياً من أركان نظرية التطور الدارويني، وهو إفتراض ترقي أشكال حياة من مراتب أدنى فأدنى، لأن الإنفجار الكامبري ينطق بخلاف ذلك تماماً، فهو لحظة حاسمة فاصلة لا يمكن ردّها الى رتبة أدنى في سلم التطور المزعوم.

الثاني: هم من يذهبون الى أن آدم وجد منذ بدايات الخليقة على نحو الخلق المستقل، فهو منذ وجوده ما كان إلّا بشراً، وأن الأرض قد عرفت البشر الذي ظهر على سطحها منذ ملايين السنين، وقد قدّر سبحانه فناء كل البشر من غير ولد آدم، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة في الجنة، حتى تتم إبادة جماعات الهمج البشرية، لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية، بطليعتها المصطفاة آدم وحواء. ولذلك عند أصحاب هذا الرأي أن بين (البشر والإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقاً، فـ (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين، منتصب القامة، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة

الله وعبادته (فكل إنسان بشر) و(ليس كل بشر إنسانا)[1].

ولذلك كان البشر خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة، حيوانية السلوك، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلاً في سلوكها، ونضجاً في خبراتها، وتلونـاً في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها. ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ)، وقد حدث بث الروح في الجسد في مرحلة (الخلق) الأولى، التي أحالت التراب أو الطين الى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر وطير وحيوان، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري، وقد استغرقت ملايين السنين، والله أعلم بتفاصيلها، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهي

---

(١) ينظر: أبي آدم: د. عبد الصبور شاهين، نشر دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠١٧: ص١١٨ وما بعدها.

المتمثلة في تزويد المخلوق السوي بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها (العقل)، والحياة الإجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الإتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء، وبذلك اكتمل بناء الإنسان، فكان (آدم) هو أول (إنسان) وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته[١].

والحقيقة أن هذا الرأي لا يمكن اعتماده والركون إليه لوجود عدّة اعتبارات منها:

أولاً: هناك آية في القرآن الكريم تبين أن آدم عليه السلام قد خلقه الله تعالى من تراب ثم قال له كن فيكون: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) آل عمران: ٥٩، وقد نزلت هذه الآية للإستشهاد بها حول بطلان عقيدة ربوبية عيسى أو إنه ابن الله، كونه نشأ من

(١) من أراد التوسع يراجع كتاب (أبي آدم) للدكتور عبد الصبور شاهين، فهو من الذين ذهبوا الى هذا الرأي، وقد ألف الكتاب المذكور من أجل البرهنة على صدق فكرته.

غير أب. ولذلك قطع الله حجة القائلين بذلك، لأنه إذا كان عيسى إله أو ابن إله، كونه من غير أب، فبالأولى أن يكون آدم عليه السلام كذلك، لأنه من غير أب وأم.

إذن لو كان آدم عليه السلام هو إبن لبَشر سبقوه لما صح الإحتجاج به بالآية المباركة بخصوص هذا المقام!.

ثانيـاً: إن الله تعالى أشار في القرآن الكريم الى إمكانية إيجاد خلق جديد والذهاب بالخلق السابق، متى ما امتلأوا بالذنوب والمعاصي والفساد، وقد تكون من سنن هذا الوجود إزالة أمثال اولئك، والإتيان بخلق يتحمل المسؤولية التي تناط به. وكما جاء في قوله تعالى:

* (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً) سورة النساء: ١٣٣.

* (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) سورة ابراهيم: ١٩.

* (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ*إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ*وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) سورة فاطر: ١٥-١٧.

ومعنى ذلك ان الله تعالى قادر على إفناء من يعصي، وخلق وإيجاد من يطيع، بحسب المصلحة وما يقتضيه المقام.

وفي هذا السياق هناك كلام للشيخ عبد الله الجوادي الآملي يقول فيه: ان ظاهر الآيات القرآنية التي تقول بأن آدم خلق من العناصر الأرضية الأربعة وأنه لم يولد من أحد، هو حجة، وما هو مطروح للبحث في علم الأحياء، وما تم الاستدلال عليه من الهياكل المكتشفة وما توصل إليه علم الآثار، كل ذلك ما دام لم يجتز حدود الفرضية ولم يأخذ لون التحقيق العلمي، فهو لا يعد مصدراً يعتمد عليه لدى خبراء العلوم الإنسانية، كما لا يصلح أن يكون سبباً لتأويل ظاهر النصوص الدينية والتصرف بها. وإذا تعدى حدود (الفرضية)

وبلغ نصاب (النظرية) الثابتة، وصار معتمداً لدى الباحثين المتخصصين، فإنه لا يرقى أبداً الى مستوى إثبات كيفية خلق آدم عليه السلام حتى يسوّغ التصرف في ظاهر النصوص الدينية، لأن هناك أناساً كثيرين جاؤا الى الدنيا قبل آدم انقرضوا، ولكن آدم عليه السلام لم يولد من أحد منهم.

والسبب في عدم فائدة الهياكل المكتشفة وكون التجارب الفنية في علم الأحياء غير مجدية، هو أن هذا النحو من التجارب وإن دلّت على إكتشاف أمر ما لكنها لا تستطيع أبداً أن تنفي خلاف ما دلّت عليه، لأنها لم تجرب امتناع خلاف الأمر المكتشف، أي أن التجربة يمكنها أن تحكم بأن هذا الأمر قد وقع في المجتمع البشري، لكنها لا تتمكن من أن تحكم بأن غيره محال، وان البشرية قد وجدت فقط عن هذا الطريق الذي يقول به علماء الآثار وتؤيده تجارب علم الأحياء.

ويمكن تلخيص الغرض بما يلي:

أولاً: الفصل بين مسألة كيفية ظهور آدم عليه السلام الذي هو الأب للجيل الحاضر من البشرية عن البحث في كيفية ظهور الإنسان الأول.

ثانياً: التميز بين مقدار ما يدل عليه العلم التجريبي والقيمة الدلالية لعلمي الفلسفة والكلام الذين يتمتعان بالنظرة الواسعة وقوة الدلالة في جانبي (النفي والإثبات)، والإعتراض بأن عدم الوجدان التجريبي لا يدل على عدم وجود الشيء الذي لم يخضع للتجربة، فلا ينبغي الخلط بين (الإمتناع العادي) و(الاستجابة العقلية).

ثالثاً: ان عنوان التعليم وإن كان يدل على سبق آدم المتعلم، لكن ذلك لا يدل أبداً على أنه وجد من جيل سابق ولا يدل على تطور الأنواع الداروينى.

وبناءً على ذلك فإن صحة وسقم آراء وأقوال علماء الأحياء، مثل ١- إنبات البشر من الأرض، ٢- المنشأ الكوني

للبشر الذي أدّى الى انتشار مواده الأولية في الجو، ثم انتقالها بواسطة المطر الى الأرض، ٣- التطور أو تكامل الأنواع، ٤- ثبات الأنواع، كل ذلك لا يمكنه أن يبين تاريخ خلق آدم عليه السلام، إلّا في حالة انحصار الإنسان الأول في آدم وثبوت عدم وجود بشر قبله، في حين أنه طبقًا لبعض الأدلة الروائية وغيرها فإن هناك اقوامًا كثيرين عاشوا قبل آدم وانقرضوا، كما أن هناك عوالم كثيرة كانت عامرة ثم دمّرت، حتى جاء الدور الى آدم الأخير والعالم الحالي. وليس هناك نص من النصوص الدينية يقول بإنحصار خلق البشرية في آدم عليه السلام وعدم وجود أي إنسان قبل آدم[1].

إذن بعد الذي ذكرناه فنحن نميل الى الرأي الذي يقول بأن آدم عليه السلام كان وجوده دفعيا، وبعد أن انقرضت البشرية التي سبقته، وقد خلقه الله تعالى من غير أب وأم،

---

(١) تسنيم في تفسير القرآن: العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي، نشر دار الاسراء، بيروت، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م: ج٣، ص٥٧٢ وما بعدها.

وهو الأصل في هذا الوجود الإنساني لا غير.

والآن بعد هذا التوضيح لنعود الى أصل البحث، وهو من الواضع للغة، هل هو الله تعالى، أم البشر؟

ودليل أصحاب القول ببشرية الواضع هو:

أن كون عملية الوضع من صنع الله تعالى تقوم على أساس نقطة واحدة، وهي عدم تمكن البشر من القيام بالعملية بدون إلهام مباشر من الله تعالى، رغم أن العملية من متطلبات حياة الإنسان اليومية وحاجاته الضرورية. ولكن تلك النقطة خاطئة، ولا واقع موضوعي لها، وذلك لما مرّ من أن الإنسان بمقتضى النعمة الأولى، وهي نعمة العقل، يدرك ما تتوقف عليه حياته اليومية، وبمقتضى النعمة الثانية، وهي نعمة البيان، يتمكن من إبراز ذلك للآخرين بإستخدام الوسائل والأسباب التي تنقل ما في نفسه.

وبكلمة، إن الإنسان بموجب هاتين النعمتين، يتمكن من إبراز ما في نفسه من المطالب والحاجات والأفكار للآخرين

باستخدام الوسائل والأسباب التي تنقل المعاني، غاية الأمر أن الإنسان في العصر البدائي، أي منذ أن وضع قدمه على وجه الكرة الأرضية، وقبل أن ينضج فكره وعقله ما كان يدرك إلّا الوسائل البدائية، كالإشارات وتقليد الأصوات والصور وغيرها من المنبهات الطبيعية، حيث أن متطلبات حياة الإنسان في ذلك العصر لم تستدع أكثر من استخدام تلك الوسائل البدائية والمنبهات الطبيعية، وأما بعد نضج الإنسان فكرياً وتطوره إجتماعيا وعقليا وتوسع متطلبات حياته وعدم كفاية استخدام المنبهات الطبيعية لسدّ حاجاته في نقل الأفكار والمطالب الى الآخرين، فدعته الحاجة الى استخدام الوسائل الأكثر تطوراً والأوسع شمولاً واستيعاباً، وهي متمثلة في ظاهرة اللغات، على أساس أنها تتطور بتطور المجتمع وتتوسع بتوسعه، لإرتباطها الوثيق به. ومن هنا كلما نضج المجتمع فكرياً وتطور عقليا وتوسع ثقافيا تطورت لغاته وتوسعت كذلك، لأنها جزء المجتمع وحينئذ فمن الواضح أن الإنسان هو الذي يقوم بجعل الألفاظ واللغات

وسيلة لنقل المعاني وتفهيم الآخرين بمقتضى نعمة العقل والإدراك، بدون عناية خاصة من الله تعالى مباشرة وهي الإلهام .. والنتيجة، أن عملية الوضع من صنع البشر[1].

ويرد على اصحاب هذا القول بما يلي:

أولاً:

إن الله تعالى قد بعث الى الإنسان من يعلمه بعض من الأمور التي هي أقل بكثير من أهمية اللغة وإحتياج الإنسان الضروري لها، لتكون جزءاً من ذاتياته. كإرساله الغراب ليعلم قابيل طريقة الدفن لمواراة جثة أخيه، وكذلك تعلم داود صناعة التروس كما جاء في القرآن (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) سورة الانبياء: ٨٠، وقيل أنه علم بعض الأنبياء الخياطة، وكذلك تعليم ذي القرنين أموراً لم تكن حاضرة لديه سواء في طريقة اجراء الأحكام كما في قوله تعالى: (..قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن

---

(١) المباحث الأصولية، مصدر سابق: ج١، ص١٥٠.

تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) سورة الكهف: ٨٦. أو في تعلم كيفية تسخير القوى المادية، كما في قوله تعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكهف: ٨٤. وكذلك إرساله تعالى الملكين ليعلما الناس السحر ليدفعوا به ضرر سحر السحرة الذين كانوا يؤذون الناس. وحينئذ يكون من الضروري أن يكون للغة حصة في تعلم الإنسان لها من قبل الله تعالى كالإلهام أو بنحو غيره، لأنها أهم بكثير من تلك الأمور التي ذكرناها.

الثاني:

الحواريات واللغة التي كانت مستخدمة مع آدم سواء في الجنة أو في الأرض، والتي جرت بينه وبين الله تعالى أو مع إبليس، أو اللغة والحوارية بين إبني آدم، فكلها تدل على دفعية اللغة في بداياتها. ولكنها بدايات قليلة وتناسب ذلك الوجود الإنساني البدائي. الى أن تطورت شيئًا فشيئًا، وهذا التطور هو الذي جرى على يد الإنسان لما يمتلكه من موهبة

العقل والبيان. ولذلك فهو لم يعش تجربة الإشارة وتقليد الأصوات على أنها الوسيلة الأولى للتفاهم، بإعتبار عدم ظهور لغة الحروف والألفاظ، نعم هو في بداياته كان يستخدم الإشارات أو الأصوات مع استخدامه للغة البسيطة، فتكون الإشارة وتقليد الأصوات من العوامل المساعدة لتفهيم الآخرين، وليست هي العامل الرئيسي. ومما يدل على ذلك إننا الآن وفي العصور الحديثة، بالرغم من تقدم اللغة وتنوعها وكثرة الإشتقاقات فيها، ولكننا في بعض الأحيان نحتاج الى استخدام الإشارة لإيصال معاني لا تستطيع اللغة أن توصلها. وهذا الأمر يبين حاجة الإنسان الى الإشارات أو تقليد الأصوات كعوامل مساعدة وثانوية وليست أولية.

الثالث:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) سورة التين: ٤، وحسن التقويم لا يمكن أن يتم من دون أن تكون خطى الإنسان الوجودية في عالم الدنيا

كلها نحو التكامل، وأول خطوات التكامل هو التعلم، والتعلم لا يمكن له أن يتحرك في بدء مسيره الطويل من دون اللغة، لأنها عماده الذي يتقوم به، بإعتبار لا يوجد تعلم من دون نقل أفكار وتبادلها في عالم الأذهان، لتتلقاها العقول في ساحة الرفض أو القبول، لتنطلق تارة أخرى بصور جديدة وآفاق أوسع مما حصلت عليه. وهكذا يكمل الإنسان مسيره الكوني بلا توقف. فكما أن الإنسان ولد وله عينين يرى ويميز الأشياء بهما، فمسالة اللغة وإحتياج الإنسان لها، قد تكون أهم من مسألة الرؤية للعينين، كوسيلة تعليمية، فنحن نرى كم من أعمى ولكنه بلغ أعلى المراتب العلمية في الفكر والنتاج العلمي والأدبي والفلسفي، لكننا لم نعهد بأن شخصاً قد وصل الى مراتب علمية عالية وهو فاقد للغة، ولم تكن حاضرة معه في حياته الدنيا. ولذلك فإن اولئك الذين يذهبون الى أن الإنسان هو الذي تعلم اللغة بنفسه، وهو الذي وضع الألفاظ للأشياء والمعاني شيئاً فشيئاً، فاحتاج الى زمن حتى أتقن ذلك، يريد أن يجعل من الإنسان في تلك الفترة

التي لم تكن اللغة حاضرة معه، مخلوقاً ليس بصاحب رسالة، تبدأ معه في أولى خطواته في عالم الدنيا، ويريد أن يسلخ منه مقام الخلافة التي وهبها الله تعالى له بقوله: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...)، فكيف يكون خليفة وهو فاقد لأهم عنصر من عناصر الإستخلاف وبيان مراميه من أوامر ونواهي من المطالب التي تناسب الشأنية البدائية في تلك المرحلة.

الرد على صاحب كتاب المباحث الأصولية حول بشرية الواضع

هذا وقد ذهب الشيخ محمد اسحاق الفياض في كتابه المباحث الأصولية الى القول: (من أن الصحيح هو كون عملية الوضع من صنع البشر منذ نشوء ظاهرة اللغة في حياة الإنسان، بدون تدخل وعناية من الله تعالى مباشرة بالإلهام، لأن نعمة العقل والبيان التي خص الله تعالى البشر بها تكفي

في تمكنه من القيام بها)[1].

وفي الحقيقة بالنقاط الثلاثة السابقة التي ذكرناها كفاية بالرد على ما تبناه الشيخ، ولكن سنضيف الآن ثلاثة ردود أخرى ليستحكم الرد على اصحاب هذا المذهب:

أولاً:

بقوله ان عملية الوضع من صنع البشر منذ نشوء ظاهرة اللغة في حياة الإنسان، وبدون تدخل وعناية من الله تعالى مباشرة بالإلهام، يتعارض مع ما ذكره القرآن الكريم، إذ بينت الآيات المباركة، وجود لغة وحوارية قد تحدّث بها الله تعالى مع آدم وكذلك إبليس، مضافاً للحوارية التي حدثت بين إبني آدم، وهذه كلها تدل على وجود اللغة، بشكل دفعي قد ميز الله بها آدم عليه السلام. فإذا كانت اللغة تحتاج الى وضع من قبل البشر، فكم سيستغرق ذلك من الوقت للوصول الى تكوين لغة خطاب كامل يناسب تلك المرحلة، ومن ثم لكي

---

(١) المباحث الأصولية، مصدر سابق: ج١، ص١٥٧.

يتم التخاطب المشار إليه.

ثانياً:

إن مسألة العقل والبيان لا تعيننا في هذا المقام، لأن الآية واضحة بأن الله تعالى هو الذي علّم الإنسان البيان (خَلَقَ الْإِنْسَانَ*عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) سورة الرحمن: ٣-٤، بإعتبار ان الإنسان قد زوّد بإمكانات لها قابلية البيان متى ما علّمت طريقة البيان، ويا ترى هل أن العقل الإنساني يستطيع لوحده الوصول الى أن يكون واضعاً، وهو في بداياته، وأن يجعل لفظاً لكل ما يقابله في حياته، ومن ثم ينحى منحى لوضع الألفاظ قبال المفاهيم التجريدية. وهو الذي إحتاج الى أن يعلمه الله تعالى أموراً، هي أقلّ أهمية وأكثر بساطة من اللغة وتعقيداتها، بالرغم من وجود العقل لديه، ولكن عجز العقل عن الوصول لتلك الأمور، فأحتاج الى أن يساعده الله تعالى فيها. وهذا ما حصل مع قابيل، إذ لم يكن يعرف كيف يدفن جثة أخيه، بعد أن قتله، حتى بعث له غراباً يعلمه كيفية الدفن. فأين كان عقله

في هذه اللحظة، بالرغم من أن عملية الدفن لا تحتاج الى التركيب والتعقيد اللفظي، إذا ما قيست بوضع الألفاظ وتعقيداتها الجعلية للمعاني. علماً إن إنسان النياندرتال في عصر الباليوليت الأوسط–العصر الحجري القديم الأوسط– الذي سبق آدم بما يقارب (35.000-100.000) قد دفن موتاه، واعتنى بدفنهم حين ترك معهم اسلحة وأدوات وزهوراً، وكان يوجههم نحو شروق الشمس، لاعتقاده بأفكار أخروية (إسكاتولوجية) بدائية(١). فلم يكتسب شيئاً من تلك الخبرات البسيطة والسائدة في تلك العصور، وأختلط عليه الأمر، فكيف سيتسنى له الوصول الى معرفة الوضع اللغوي المعقد والمركب؟!.

ثالثاً:

إن مسألة اللغة وإرتباطها بالإنسان هي من الضروريات

---

(١) ينظر: حضارات ما قبل التاريخ: د. خزعل الماجدي، نشر دار تكوين، بيروت، ط٢، ٢٠١٨م: ص٥٠٥.

التي لا يمكن أن توجد لحظة وهي غير مرتبطة بالإنسان ولصيقة به، فهي يمكن أن تشبّه بالأكل والشرب للإنسان، فكما أن الإنسان لا يمكن له أن يستغني عنهما في حياته، كذلك لا يمكن له أن يستغني عن اللغة في حياته الإجتماعية والفكرية والعلمية، إذ لا يمكن أن نتخيل إنساناً كاملاً يعيش بدون لغة لفترة طويلة، الله العالم بها، حيث يمر بمراحل الوضع والجعل اللغوي وهو يختار الألفاظ للمفردات التي تحيط به والتي تشكل محيطه الإجتماعي والطبيعي.

وقد بيّنا في البحوث السابقة عجز الوسائل الأخرى عن أن تكون بديلاً عن اللغة لفترة ما، كالإشارات والأصوات العشوائية. فكما أن آدم عليه السلام وزوجه وجدا بالفطرة وهما يأكلان ويشربان، ولم يحتاجا الى التعلم التدريجي، كذلك كانت اللغة معهم بالإلهام والتعليم الإلهي. ولم يكونا بحاجة الى التعليم التدريجي. وذلك لأن الضرورة هي التي حكمت وأوجبت هذا الشيء.

وبتعبير آخر هناك أمور تتعلق بالإنسان يمكن أن توجد معه بالتدريج، حتى وإن استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وهناك أمور لابد أن توجد مع الإنسان بشكل دفعي، فهي لا تتحمل التأخير والتراخي لتنمو شيئًا فشيئًا، وهذه أيضًا تختلف، فهناك أمور منها لابد أن توجد معه في بداياته الأولى، كاللغة وكيفية الأكل والشرب، وهناك أمور تأتيه بشكل دفعي ولكن بعد حين، مثل عملية الحمل وكيفية رعاية الطفل فيها، ومن ثم كيف التعامل مع الطفل وهو يخرج من بطن أمّه وقص جارته، وثم كيفية إرضاعه والعناية به وهكذا. فهذا بكل تأكيد لا يتعارض أو يتناقض مع مسألة وجود العقل ودوره في تحريك الإنسان للمصالح والابتعاد عن المفاسد. وكل ذلك يحدث لتعزيز العلاقة بين الفرد وربه، وليبقى دائمًا يتطلع الى الله سبحانه في حياته الدنيا ويشعر بإحتياجه وفقره، وأن هناك أموراً كثيرة تحدث في هذه الدنيا، يعجز العقل من أن يجد لها حلولاً ومخارج، لولا التدخل والرحمة الإلهية لهلك دونها. ولما كان له شيئًا يذكر.

الأمور التدريجية والأمور الدفعية في هذا الوجود

ولبيان الأمر الدفعي والأمر التدريجي بشكل أكثر وضوحاً سنبين ذلك فيما يلي:

هناك في هذا الوجود الدنيوي أمور على أنواع منها:

أولاً: أمور تدريجية.

ثانياً: أمور دفعية. والأمور الدفعية تنقسم الى قسمين

الأمور الدفعية

دفعية في بداياتها ولا تحتاج الى ان تتطور وتتكامل بالتدريج، لأنها وجدت متكاملة.	دفعية في بداياتها، ولكن حتى تتكامل تحتاج الى التدريج والى زمن طويل لإتمام هذا الأمر.

ومن الأمور الدفعية الوجود، والتي لا تحتاج الى التدريج والتكامل، هو ايجاد الأنبياء والأئمة، فكل الأنبياء لو تفحصنا واحداً واحداً، نجد أن وجوداتهم دفعية. وأنا أقصد بدفعيتهم أنهم منذ البدء وجدوا متكاملين ومعصومين عن الخطأ ولم يتعلموا على يد أحد ولم تبدر منهم أية معصية.

علماً أنا هنا لا أتكلم عن التفاضل فيما بينهم صلوات الله عليهم أجمعين، وأن الأخير يكون أوسع وأعمق في رسالته وإحاطته للكون والحياة من السابق، فذاك شيء وما نحن بصدده شيء آخر.

وقد يسأل سائل ويقول: إن وجود الأنبياء وبعثتهم كانت على نحو التدرج في التكامل وسعة الرسالة، ولم تكن دفعية وبشكل فوري وآني؟

فنقول: نعم، إن بعثة الرسل بما تمثله كخط رسالي واحد يبدأ من الشيء البسيط وغير المعقد، وتنتهي بتكامل وعي البشرية التي تحتاج الى سعة في الأحكام وحل المشاكل التي

تتولد نتيجة التزاحم والتشظي البشري الهائل. ولكن كشخص الرسول، فوجود بعثته دفعية، ولم يكن يحتاج الى التدرج للوصول الى مقام النبوة، ففي بعده الشخصي وفي مقام نبوته اللازمة في ذلك الزمن هو دفعي الوجود، ولكن في بعده النوعي هو تدريجي الوجود، وفي ذلك فارق كبير علينا الإلتفات إليه وأن نفرق بينهما. وثمرة ذلك تخرج من خلال بيان ما يلي:

١- لو كان بعث الرسول يحتاج الى التدرج في نفس بعثته - أي من ناحية قصر النظر على شخص الرسول في زمن محدود ومكان محدد - لما استطاع أن يؤدي غرضه الذي بعث من أجله، بشكل كامل، كون هناك مشاكل ومواقف إجتماعية وغيرها تحتاج الى إيجاد الحلول وإتخاذ القرارات المباشرة التي تناسب ذلك المحيط والمستوى الإجتماعي والفكري فيه، وهنا من المفروض أن يكون مستوى الرسول أعلى من ذلك المستوى، وان يكون محيطاً بكل احتياجاته، والمعرفة التامة بكل متطلباته،

وهنا تتشكل الدفعية، بوجود الرسول، بحيث يعلم بإحتياجات قومه، وله القدرة الكاملة في ايجاد الحلول لهم، ولا يحتاج الى زمن يتدرج فيه لتتكامل معرفته وهيمنته على الاوضاع الإجتماعية السائدة ومعرفة الحلول المناسبة لها.

٢- لو بعث رسول ما، ونحن نعلم بأنه لازال في مرحلة التدرج في التعلم والنضج، ولم يصل بعد الى أعتاب التكامل الخاص في زمن بعثته، فهنا لن يتم الإطمئنان الكامل لما يصدر منه من أحكام أو حلول مجتمعية، على اعتبار إن ما يفهمه اليوم، ويحاول طرحه نتيجة لوجود تشريع سماوي منزل أو نتيجة المعرفة الإجتماعية وأعرافها، فإنه يفهم ويطرح ما يناسب تكامله في تلك المرحلة، وما أن يتدرج ويتكامل بشكل أكبر، من خلال التجارب واكتساب الخبرات والمهارات العقلية وغيرها، فبعد تلك المرحلة قد يكون له موقفاً وقراءة ثانية تختلف عن قرائته الأولى، حتى من ناحية فهمه للأحكام الشرعية.

وهذا الأمر محسوس ومعاش في أمورنا اليومية، وعشنا الكثير من امثال هذه التجارب، حتى انك تجد كثيراً من أساطين العلم وجهابذته الذين يشار إليهم بالبنان، تجدهم عندما يتكلمون عن شيء ما، ويؤلفون حوله الكتب، بعد فترة من الزمن يقولون لو كتبنا في نفس الموضوع الآن، لكان رأينا وفهمنا يختلف عن الفهم والرأي الأول.

أما الأمور الدفعية الوجود في بداياتها، ولكنها حتى تتكامل وتنضج تحتاج الى التدرج، وهذا بدوره يحتاج الى زمن طويل لإتمام هذا الأمر. وحينها سيعتمد الإنسان على نفسه في إكمال طريق التطور والنضج فيه، بعد أن يمنحه الله تعالى الدفعة الأولى التي يتمكن من خلالها من معرفة ما يحتاجه في تلك المرحلة، ومن هذه الأمور هي اللغة ونشأتها في بدايات الوجود الإنساني.

فإذا قلنا إن اللغة هي متدرجة، فهذا يحتاج الى وقت طويل، وهذا بدوره ينفي أن تكون هناك ثمار في البدايات،

لأنها لا ترى ولا تؤتى إلّا في النهايات، وهذا خلاف ما صرّح به القرآن الكريم من وجود نوع من اللغة والحوار بين آدم والله تعالى، وبينه وبين إبليس، أو مستوى الحوار بين أولاد آدم، وكلها تدل على مستوى عالٍ من الألفاظ والمعاني. بل الشيء الملفت أن هناك ألفاظ كانت تدل على معاني مجردة، لا يمكن أن تؤدى، إلّا أن يكون آدم عليه السلام وأبناؤه على إحاطة معتد بها، في دلالة اللفظ على المعنى. كورود لفظ القربان بالمحاورة التي جرت بين ابني آدم، وكما قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) سورة المائدة: ٢٧، بحيث تأثر الذي لم يتقبل منه تأثراً شديداً، وكان سبباً قد أدى الى أن يقتل أخاه، وهذا فيه دلالة واضحة على وجود وعي وإدراك لا يمكن أن يكون فيه الإنسان بدائياً في كل شيء. ثم انظر الى مستوى اللغة والخطاب الذي حصل بينهما:

- (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ...)

- (إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

- (إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ...)

- (فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ...)

- (وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) سورة المائدة: ٢٨-٢٩.

ثم انظر الى نفس خطاب القائل مع نفسه:

- (قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) سورة المائدة: ٣١.

فتمعن بالعبارات والألفاظ:

- (قَالَ يَا وَيْلَتَا...) فهنا تكلم بمنطق العارف بالعقوبة، فأتى بلفظ الويل.

- (أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ) بيان عدم القدرة والفطنة لديه في تلك اللحظة، بحيث تعلم من مخلوق هو يعلم بأفضليته عليه، مضافاً الى أنه قد عرف إسم هذا الطائر، مما يدل على وجود معرفة مسبقة، بأسماء الموجودات حوله، وكان ملتفتا الى مسألة وجود الألفاظ المناسبة لها، ولذلك هو لم يتردد في إطلاق لفظ الغراب حينما استشعر الألم وهو يحدّث نفسه.

- (فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي...) فهنا تكلم بالمواراة وإخفاء الشيء، وهو لفظ أقرب للمعاني المجردة، يحتاج الى نوع من الوعي والشعور بالمسؤولية قبال الأشياء الأخرى.

ثم عرف أن أخاه قد أصبح بموته سوَءة، ويجب أن لا تبقى على سطح الأرض، ثم أنه قد عرف المعاني الخاصة بتكوين الأسرة وإرتباط الأفراد فيما بينهم. ولو لم يكن للأسرة وجود وأن هناك قيم أخلاقية وشعور بالود والمحبة فيما بينهم، لما قال أحد الأخوين يا ويلتاي أعجزت أن

أواري سوَءة أخي. فهو هنا يقر بالإخوة وأن أباهما آدم وأمهما حواء، فهم تحت غطاء ورابطة الأسرة، وليس تحت أي غطاء من الفوضى والعبثية. ولكن وجود الشيطان وتسويلات النفس، هي التي تجعله يُقدم على قتل أخيه، فشعر بالندم بعدها، بل وعرف عاقبة أمر ذلك الفعل الذي أقدم عليه. وها نحن الى الآن نرى بعضاً من الناس يقدمون على قتل افراد من أسرهم، بالرغم مما وصلنا إليه من عمق في مفاهيم الدين وعمق في مفاهيم الروابط الأسرية وما يترتب عليها من إلتزامات. وبذلك يظهر خطأ ما ذهب إليه بعض الباحثين[1]. من أن أول مفهوم أخلاقي تم فيه التمييز المباشر للإنسان عن البهائم قد ظهر أول مرة في تاريخ الإنسان في زمن نوح عليه السلام بقوله تعالى: (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) سورة نوح: ٢٨، بل ان أول المفاهيم الأخلاقية الأسرية، وجدت مع وجود آدم عليه السلام، ومن ثم نمت شيئاً فشيئاً.

---

(١) هذا ما ذهب إليه د. محمد شحرور وآخرون، ينظر كتاب (الدولة والمجتمع) لـ محمد شحرور، ص٥٥ وما بعدها.

إذن يظهر من ذلك أن الله تعالى قد ساعد آدم في بدء خلقته، وألهمه كيفية النطق بمجموعة من الألفاظ وبتراكيب وهيئات مختلفة، بحيث يقضي احتياجاته ضمن محيطه ووجوده البدائي ذاك، من دون أن يكون له علم مسبق بالوضع، وكانت تلك هي لغته الأولى ومن ثم تطورت شيئاً فشيئاً، كلما توسع ما يحيط بالإنسان من الأسرة والقبيلة والقرية والمدينة وهكذا، فهذا التوسع يولد الكثير من الأشياء ويظهر مفاهيم وعلاقات جديدة، وكل ذلك يحتاج الى ألفاظ جديدة لتساير التجديد والتنوع الذي أحاط به.

وأما الأمور التدريجية، فهي الغالبة في هذا الوجود الدنيوي، بإعتبار ان الإنسان كائن إجتماعي ومتعلم وخازن للتجارب، بما فضّله الله تعالى بكثير من الخصائص والقابليات التي تؤهله للرقي والتواصل مع هذه الحياة. ومن هذه الأمور تكوين الأسرة والقبيلة والقرية والمدينة والدولة، وكذلك التدرج في العلوم والنظم الإجتماعية والقوانين المدنية وغيرها الكثير.

الفهرس



من أي محور ننظر إلى اللغة لكي نستطيع وضع مخططاً توضيحياً منذ بداياتها الأولى والى وقتنا الحالي ، هل يغنينا أو يفيدنا المحور الأفقي المتمثل بالمحور الوضعي الذي يصف الأشياء وهي في حالة ثبات ، بعيد عن أثر الزمن ؟ أم نعتمد على المحور الرأسي الساري المفعول بالملامح التأريخية التي تعتمد وتقوم على أساس تغير الزمن .

أم هل تفيدنا النظرة الفسيولوجية والسيكولوجية – النظرة الوظيفية والنفسية – التي تتعلق بالمظهر الأولي للإنسان، ومنذ وجوده الأول على هذه الأرض . وكيفية استغلال تلك الوحدتين بإتساق لتحقيق الغرض من وجوده الأولي الذي ينقله الى وجود آخر .



